سبع وريقات شخصية لعامل التحويلة المتحرر

قصص قصيرة

سمير عبد الفتاح



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

اهـــداء

الى روح الكاتب الذى لم تكن القصـــة لديه مجرد حكاية تحـكى ..

او روايـــة تروى

لكنها حالة تتخلق ، ورسالة تتشكل

ففجر بقلمه حالة من القلق المحفز ..

والاســـتنارة الجميلة .

الى يوسف ادريس

- الحياة لمن يحياها
- الخيـــول
- فانتازيا الليل .. والنهار
- حوار مع الطلخاوى

الحياة لمن يحياها

هذا الرجل الواقف عند الحوض

يحلق ذقنه مثلى .. ومثل أجدادى

لمــاذا يقف فى شقتى .. ذلك الرجل الفارع ..

ويحــاكينى ؟

عريض هو مثل أبى

طويل مثل أجدادى

شــديد مثل عمى

رهيف مثل أحفادى

ها هو يرمقنى بعينيه المنطفأتين ، وقلبه الواجف ..

ويتساءل بصمت بارد .. كسول !

ها هو ينادينى .. ويغمز بعينيه ..

يحـــدجنى فأرنو اليه !

و .. « ها هو يضع الفرشاة على الرف الزجاجى لمرآة الحـــوض .

ويتأمل مصباحها الذى يشبه النجوم ..

وبعد فترة وجيزة

يفتح الصنبور المعـــدنى

فتتفجر المياه .. كما تتفجر الحياه

وينزلق الصوت .. كما ينزلق الموت

وها هى الأيـــام تجرى !!

❃

فنجان تطارده الحرارة والدخان

وممشاط يفرق الشعر ولا يخفى السنين

لفافة بيضاء يتوجها الرماد الخبى ..

ورجل من الثلج والفحم والبارود

والدخــان ..

يرمقنى بعينيــه الخزفيتين ، الصــامتتين ، الســادرتين ،

المخترقتين .. وينتظر !

❋

ببيونه من الكشمير الأسود الدامع

وقميص حريرى موشى بالدانتيل اللازوردى الضحوك

الياقة : منشاة ، ومقلوبة الهرمين

والقلب تواق ، والعمر محدود !!

وردة منداة تنتظر عروة « البليزر » التركوازى

ذقن ناعمة ، مضمخة بعطر رجالى خجول

ودبابيس من الذهب والفضة .. تطوق الصدر والرسغين

بين جدران هــذه الأشياء

يســكن رجــل !

❋

داخل المرآة زوجته وجده الكبير
جميلة هى فى اطارها البعيد
على يمينها شريط أسود ودمعتان
وتحت عينيها ــ وثدييها ــ هالتان
وعلى يسارها وحيدها الشهيد
فمن تكون أيها الواقف ما بين شعلتين ؟
المتشــق لســيفين ؟
من أنت أيها الغارق فى بحورى ؟
السادر فى سجونى وقصورى ؟
ولم تفضحنى بعينيك المعذبتين
وتحرث شــاربى وغاباتى ؟
ما أجهــلك !

❋

مع « موتتجمرى » كنت تحارب

جادلت فلاحقتك رصاصات السوارى

حملت العلم ذا النجوم والهلال

وحين أبيت فتحوا عليك الكبارى

سمعت البيانات والوصايا العشر

فحرقت واحترقت !

ناصرت الوفد وطاردت الأعداء

شاركت فى الحرق ، وفى الاطفاء

وها أنت تجتر المثالب

فمتى تدرى من كنت تعادى

ومن كنت تحـــارب ؟؟ !

❁

زرزور فى حجم البنصر

يتيه بجناحيه ولا يرانى

ألامس الزجـــاج فيهملنى

ويواصل الوثوب فى خيلاء

أهيم اليه فيطير مرتعبـا

تهيم أشـواقى فيسقط زجاج

ويشـال دم

يطير فى فضائه .. وانفرط فى قفصى !

*

هذا الرجل الواقف قرب الحوض

يحلق ذقنه مثلى .. ومثل أجدادى

ماذا يريد أن يقول ..

بعد أن ضبب المرآة بعينيه الراكعتين

وهاجمـه الشيب والأفول

فلم يبق من فضاء الدنيا وبحارها الكثار

ما يملا فراغ الهـدبين

لمـاذا جرح خده ، واثال الدم على حافة الحوض

كما ينثال العمر .. ويهرب الشباب
ولمــاذا وقف الزرزور متسائلا دهشا ..
فرنا صوب اليمين .. ورنا صوب اليسار
وحين لم يجــاب
أولاه ظهره ... وغاب ؟ !

دمشق ١٩٨٠ م

تجليــات الخيــول

« .. يا ولدى قل .. ودعنى اقول..
فمــا بيننــا شرحه يطول ، والعقــل : غريم القلب ! »

« وصية »

هنــاك . هنــا .. ا .. ا .. ك .

خلف الأفق البعيد .. البعيد

فى ركن مضىء من الدنيا الرحيبه

خلف الحدود .. والسدود .. والمشاعر المضلله

تمرح عصافير ملونه ، وخيول بيضاء مجنحه ، تنتظرنى ، وتهيم فى الغابات البكر ،

والدنيـا البراح .

هنـا .. ا .. ا .. ك .

خلف المـألوف والمكرور والممـكن . غابات وثمـار . وقزح ملون

عالم مفعم بالدفء والسكون .. والطزاجه

على بعد أمتـار منى

لكنه ليس لى !!

وهنا تتشاهق الأسوار وتتكهرب . يصرخ أبى فتهرب

العصافير وتفزع الخيول

تتبادل الاتهامات اليومية :

ـ أنت متهور !!

ـ أنت متخلف !!

فتهرب الطيور وتتثال السحب .

« سقاك الله يا دنيا البكاره . ها أنذا آتيك كما ولدت كى أزرع فى رحمك البكور آدمك الجديد » .

— أنا لم أدفعك للحرب يا ولدى .. لم أصبك .

❋

ها هى صديقتى تضغط يدى وتقحم الذاكرة ، أحادثها عن الطيور فتضجر ..

أحدثها عن الخيول المجنحة فلا تفهمنى . أصارحها بأننى لن أتحدث بعد اليوم الا عن الخيول فتدهش ..

تغمغم : حطمتك الحرب .

— بل حطمتنى الخيانه .. حطمتنى المهانه .

تأخذنى فى حضنها وتهمس : انت غريب الأطوار . خيالى . متى تتزوج ؟ !

❋

على الضفة الأخرى للبرارى يقع برواز جدى . يرمقنى من خلف زجاجه المغبر باندهاش وارتياب !

حريص هو على عقف شاربيه ..

حريص على أن تظل ياقته المنشاة واقفة كالسيف المسلول.

حريص على خيوط طربوشه ، وخط حاجبيه .

موشــوم الصــدغ والكفــين . مدهش مندهش . منكر مستنكر . آمر . صــارخ . ضارب . رافض . قابض على منشته كعداء يحمل شعلة .

سعيد بأيام الصــبا والصبايا

سعيد بأنه يرأسنى ويرأس من يرأسنى !

سعيد بأنه مات وتركنى بلا شارب ولا طربوش !

ها هو أبى يجاوره الجدار . ماسكا نفس المنشة ..

عاقفــا نفس الشــارب ..

لكن « التكنولوجيا » لونت خديه .. وألبسته طربوشا بزرين

أناطحــه فيهرع جــدى : ماذا تفعل يا ولد .. ستكسر الصــورة يا مأفون !!

❋

فى الحلم ينادينى فأهرب من عباءته . أنام على ظهرى كى أرى نهايته .

يمد كفيه فتمتلىء الدنيا بالرماد والرماده

يرفعنى بأصبعيه فيخطفنى رخ

استنجد بالخيول فتنداح الغابات .. وتهرب الملائكة .

أناديه فتسقط عاصفة . أتقلب فى سـجون حواسى .. واحتراسى

أتسلق غابات شاربيـه فينفد الهواء .. أحـاول النزول فتقيدنى أثقـالى

أطيح فى سافانا الساعدين فيزأر الأسد الموشوم على كفه ، ويرمى سيفه الأخضر وينام على الأرض

فيا أحصنتى المجنحة .. خذينى الى الهواء على بساطك السـندسى

حذينى للسماوات التى لم تمسسها يد ، أو تراها عين بشر خذينى للهواء الطلق

خدينىهكذا .. هكذا .. هكذا . طر ا .. ا .. ا ..خ!!

*

ـ أريد ان أهـاجر ؟

ـ تـكلم بأدب .

ـ لمـاذا تطاردنى فى نومى وصحوى • تختـار ملبسى ومأكلى ؟

ـ لانك عـاجز !

ـ أريد ان أهـاجر •

ـ يا ولدى •• أنا لم أعلمك لتتركنى • لم أصبك • ولم أهنك • أخوك هاجر وأنت وريثى ••

ماذا ينقصـك ؟

ـ أريد ان أهـاجر •

ـ حبيبى •• انس الطيور والخيول •• وعش على أرض الحروب والتشيؤ •• اغلق أنفك ولا تغلق عينيك • اغلق قلبك ولا تغلق عقلك •• أ ••

ـ أريد ان أهـاجر •

يهجو الشعر والشعراء ، وبكل ثبات المـانح المـانع ، يرفع لوحة الأحصنة ••

ويحطمها على الأرض •

❋

والآن .. وبعد أنقضاء مراسم العزاء .. ورفع الخيـام والمقاعد المذهبة .. وبقـائى وحدى وسط الأطـلال الباردة والطيور النافقه ..

يمكننى ان أجمع كتبى وأوراقى .. ان أجمع عكازى ولعب طفولتى

شهادة ميلادى وبنادقى القديمـة

سـاعتى ونقودى

مخـاوفى وقيودى

فأكوم الجميع فى باحة الدار اللحود . ومن بعيد ارقب النيران حتى تذوى والرماد حتى يخبو .. وتذروه رياح

أواه .. هناك .. هنا .. ا .. ا .. ك .

فى البعد البعيد ..

خلف الأسوار . والأعراف .. والأرقام . والسدود . تمرح عصافير جديدة وخيول خضراء مجنحه .

تنتظرنى .. لنهيم فى الدنيا الرحيبه

هنا .. ا .. ك .. يمكننى ان أمســك الخيط وأتعلم سر الحيــاة :

ــ ا • ب • ت • ث • ج • ح • خ • د • ذ • ر • ز • س • ش • ص • ض • ط • ظ • ع • غ • ف • ق • ك • ل • م • ن • هـ • و • لا • ى !!

ميلانو ــ ايطاليا ــ ١٩٧٨ م

فانتازيا الليل .. والنهار

**« ولا يهزمك يا لليـل الا عـديم النظر
ولا يغلبك يا خيل الا قليل البصر » .**

الفصـــل :

يحدث هذا فى الليل والنهار معا .. وما يدهشنى حقا انه يتم بنفس الطريقة أعود لغرفتى الأرضية المظلمـة ، كتبى الثقيلة على صـــدرى ، وعالمى الظليل فوق رأسى « أنفض » أذنى من أصوات الناس والكلاب ، أنفض قلبى من رائحة الشواء ، أغسل روحى وأنشرها على السرير سحابة وغمامة .

أحكم اغلاق الباب والنافـذة الصغيرة ، أحـكم اغـلاق الراديو ، وحواسى المشتعلة تتسلل الأصـوات من الفرجات ، فأحشوها ثيابى وأوراقى •• أخاف ان يهزمنى اللعين فأضـع السرير والحصير خلف الباب ••

وأنام على الأرض •

مفردات الفعل :

أحلم كثيرا هذه الأيام قبل أن أهب جزعا •• أحاكم بتهمـة سرية ، فيتهامس الجميع ويتلمظون ويتضاحكون •• يطلب منى أن أدافع عن نفسى فأقول ، وأبول فى الميزان •• يشيد القاضى بحكمتى ويحسدنى المحلفون •

أقول ما أقول •• فيقول ما يقول •

يصافحنى الحاجب ، فأعطيه سجائرى ليدخنها لى ••

أركل القاضى فيمنحنى وساما ومطرقه

تمتلىء القاعـة بالهوام والكلاب الضـالة •• أطيح فى الجميـع

تنتفض الطيور وتهرب من صدرى

أشعر بشعبان يتحرك فى داخلى •• أتحرك معه •• أتحرك مثله •• أتحرك له أرقص ••

أهب قاعدا •• مفتوح العينين !!

ما بعد الفصل :

فى الصباح أحارب الاعتقاد بأنى خلقت لأشغل فراغا فلا أستطيع •• تفزعنى السيارات والجرارات •• والطائرات العابرة • تصدمنى مانشتات الصحف التى لا تتحدث الا عن الكوارث والحروب ، تطاردنى الأرقام والحسابات والجدول •• رقمى ورقم منطقتى ورقم عائلتى ، ورقم ميلادى ، ورقم ملفى ، ورقم بريدى ، ورقم بطاقتى وحذائى وقميصى وجواربى واخواتى ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ ٥ ــ ٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩ ــ أرقام تولد وأرقام تموت •

أخاف ان أجن فابتاع « ساندوتش » بيض ؛ كى أوقف حركة الهزيمة بداخلى ، فيتجسد بداخله كتكوت يحدجنى ويصوصو •

يمد يده ويصافحنى •• يسألنى عن الطقس ؛ وأسعار الفنادق أرى فى عينيه انعكاس الميدان فأتركه وأمضى •• يسبنى فأبتلعه ، وأحول النهر •• يصيح بداخلى ويطلب النجدة •• المطافىء •• يرجونى أن أذهب الى هناك فأذهب أبوح للجاويش

بالوقائع ، فيركلنى بشاربيه • أتدحرج على سلم لا نهاية له ، تتدحرج كتبى وأقلامى •• تتدحرج الدنيـا وتهرب شمس الغروب !

أكتب اسمه على أجندتى ، وأرميها للبحر فيخرج الحوت ويحيينى •

أتذكر أبى الذى مات ، ودفننى ، أذهب ، الى قبره ، فيصيح فور رؤيتى :

أيها المـأفون •• المغبون •• المجنون •• الـ ••

أرخى ذراعى المفتوحتين وأنام فى قوقعه •• تلوح أمى من بعيد وتناغينى •• تزيح بجناحيها الأبيضين القصيرين زرقة الضباب ، وتنادينى فيؤلمنى الصدى •

أجرى اليها هائمـا منفطر الفؤاد • أطـير •• فتكبلنى العناكب •• أغوص فى بئر لا قرار لها •• تنحشر الصرخة فى حلقى ويزداد الضباب زرقة وعتامة •

فى القاع • أرى عزرائيل يأكل أصابعه ، ويحل الكلمات المتقاطعة •• أعانقه منافقا فلا يهتم •• أشد قرنيه فيركلنى •• ويمسح مرفقيه •

ألطمه فيسقط على الأرض كومة من القش !

يهب لاعنـا متوعدا .. يطـاردنى فى غابات ملؤها الثلج والأيائل النافقة .

وحين تنتهى السهول والهضاب . أسقط فى نهر بارد .
فأضع السرير والمقاعد خلف الباب .. وأنام على الأرض !
حاشـــية :

ماذا يبقى للنهر .. بعد أن ينضب البحر ؟

ماذا يبقى للغابات البكر ..

بعد ان تسأمها العصافير .. ماذا يبقى للســماء بعد ان تهرب النجوم ؟

ماذا يبقى لى من هذا العالم الظليل

ســوى القلب الأمين ؟

حاشـــية اخـرى :

يقول الطبيب : « ريلـكس » .. « ريلـكس » .. « كومبلكس » .. « كومبلكس » .

يقول شقيقى الذى يدفىء صدره بلحيته ، ولا يعدل بين النســاء :

ـ الايمان هو الحـل يا أخى المواطن :

ويقول المحـامى بعد ان يتـأكد من دفع الأتعـاب : التعويض مضمون يا محترم ••

هـات •• وهـات !!

ويقول المعوضون : هات شهادة من الأعداء •• تفيد انهم أصابوك فى الحرب •

ويقول اقطاعى : ماذا فعلت له الثورة ؟

وتقول راقصة : « أشتاتا أشتوت » !!

ويقول متخلف : انتموا •• انتموا ••

ويقول بترولى : ها •• ها •• ها •• هاى !!

❋

حاشـية اخـيرة :

فى الميدان الرحيب أغسل أسمالى ، وأنشرها على كتفيه •

أغوص فى نافورته فيطاردنى الرعاع

أثب على كتفيه ، وأرفع شعلة الوهم

أضاحكه فيلطشنى • ويمنع الميراث
عند كوبرى النيل أصارع الأسدين فتشتمنى امرأة
أضحك للسماء فترشنى بالمــاء
أعود لغرفتى وأتخندق لليوم التالى ••
والشــهر التــالى ••
أخاف أن يحاصرنى الجميع فأضع السرير خلف الباب
أضع الثياب والكتاب ، والحراب ،
وأنام — من جديد — على الأرض !!

الاسكندرية ١٩٦٩ م

حــوار مع الطلخــاوى

حين فتحت باب شــقتى ، ومــددت يدى لاتحسس زر الكهرباء وجدت من يقبض على كفى !!

هذا ما حدث بالضبط .

يد كبيرة وخشــنة ، تشــبه مخــلب الدب الافــريقى الجهول(*) .

(*) « القى الرجل بسنارته فى النهر المــالح ، وقبل العصر صاد سمكة فى حجم البنصر ، فقال اعيدها للنهر كى تأتى باكبر منهــا » .

على الفور تصـــورت انني مازلت فى السـينما ، وان الكونت دراكولا قد خرج بالفعل من تابوته متوعدا ، وجرى نحونا فهرب بعضنا ، وتسمر بعضنا الآخر •

غير ان المخرج الكريم أنقذنـا من الكارثة ، ووضـع لافته تحول ، وتقول : The end (*) •

(*) « وقبل المغرب أتت بسمكة فى حجم الكف ، فأعادها وقال لتأتى بأكبر منك » ••

ولأنى لا أحب الأفلام الأمريكية أصلا ، وأتصـور ان المسألة برمتها مجرد خيالات مريضـة يستهلكها مرضى ، ولأنى أتشكك حتى فى عدد أصابع اليدين ، وأدرك ان عددها لا يعنى أى حقيقة أخرى ، فقد تذكرت بسرعة ، اننى قد خرقت القوانين بخروجى ليلا ، وبدون اذن مدموغ فرحت أتسلى وأنتظر(*)

(*) « وقبل العشاء أتت بسمكة فى حجم الذراع ، فأعادها ثانية ، وسألها : متى تأتين بأكبر منك ؟ »

ـ أين كنت يا طلخـاوى ؟

سمعت ذا فلم أعد بحاجة لدليل جديد !

ولأن هذه هى شقتى أنـا • شقتى التى أعرف كل ركن فيها ، وكل لون كتاب ، وأعرف انها امتداد لجسمى ، وفراغى ،

ومجالى الجوى ، فقد جذبت يدى بعنف أدماها وفكرت ان أسحب قلمى الذى شحذت حده الآخر على جدار السجن ، وأغمده كالسيف المسلول(*) .

(*) « بيد أن الرجل قال للرجل : ما بك ؟ فقيل : ما بى بـك » !

وقبل ان أفعل ذلك ، سمعتنى أصـيح من بعيد : ياولاد الكا .. ا .. ا .. لب !!

فغشيتنى الكشـافات ، وازداد ضـغط الأحـذية على الرئتين .

وقبل ان أروح .. صرخت صرخة خيل الى انها لم تخرج منى ، لأنى لم أصرخ حين سجنونى ، ولا حين رأيتها فى حضن غير حضنى ، ولا حين تركنى وحيدى مسجونا وسـافر لـ .. « بلاد الحرية » !!

ولا حين تركته ينسل من حضنى ، كما ينسل الوريد(*)!!

(*) « وقبل الفجر أتته الاجابة : سمكة فى حجم الجسم ، تكاد تشـده الى النهر ، فدحرجها من جديد ، وقال : لتأتى بأضخم منك » .

مع انى خرست ــ حتى كدت أفقد القدرة على النطق ــ حين رأيتها تنام على سريرى ورأيته يلبس (بيجامتى) ، ويدوس على كتبى وضلع أجدادى(*) •

(*) « وظل الرجل ينتظر •• وينتظر ، وظل يقرض أظافره حتى تخلص منها كلها وبان العظم » !!

ــ الم نحذرك من الخروج يا طلخاوى ؟

لبرهة خيل الى ان بامكانى ان أقاوم ، وان أمارس حقى فى الحياة ، وادافع عما أملك وأشعر انه الحق • وقبل ان يبدو لى ذلك مستحيلا :

دفنت أظافرى فى لحم ، وجذبت أكماما وياقات ، وقطعت أوراقا ونياشين ، حتى خبا كل ضــوء ، وسكنت كل حــركة فرأيت دراكولا يطاردنى فى قصره البعيد ، ورأيت هياكل عظمية تلاحقنى ، وزواحف خرافية الحجم توحــل الطريــق ، وتبتلع الشجر ، ورأيت زوجتى تبحث عن ثيابهــا وتبــكى ، ورأيت الشهب تنثال دما وتدخل فى عينى ، ثم ماء باردا يسكب على رأسى ، وصوتا آمرا ينادينى باسمى ويضرب وجنتى(*) !!

(*) « وبعد الفجر شــد الرجل ســنارته ــ وقد أبيض شعره ــ فخرجت سمكة فى حجم عمارة وابتلعته ، ثم نزلت للنهر لتأتى بأصغر منها » •

قلت يا ولد قم وواجههم ، ففى الموت سبع فوائد . لكنهم كانوا قد وقعوا فى دفتر الحضور وانصرفوا . فمسحت دما تجلط على شفتى ، وبحثت عن نظـارتى بين عشرات الكتب الممزقة ، والأكمام (المأســورة) فوجدتها مسحوقة بالأقـدام « يا ولد كنت آخر من خرج ، لانك لا تنتمى لغيرك ، ولا تملك سوى فرحك وصــدرك العارى » حــاولت أن أقوم فترنحت الدنيا ، كررت المحــاولة دون كلل حتى نهضت مستندا على الحائط البارد . وحين فتحت النافذة ، وتفرســت الاعلانات الوامضة فوق العمارات البعيدة تبين لى ان استجابتى للضــوء قد ضعفت « أنت ابن هــذا الوطن فأنس انكسارك ، وفجيعتك ككائن يحاسب على وعيه .. وعلى جهله » وقفت لحظة لأضبط توازنى ، وسمعت كروان الفجر يتنــاهى من خلف النهــر ، فشغلنى البوح والغناء ، ورفرفت بذراعى فوقعت على الأرض !

وحين فتحت كل نوافذى متحاملا شعرت بملايين العصافير الملونة تهجر الدنيا وترقد على صدرى !

القاهرة ١٩٨٧

- أخي محمــود
- تطهر الفارس القديم
- الجمـــل

أخـــى محمـــود

فجـــأة ..

وفى سكون ليل قريتنا ، وسلامها السادر ، صرخت أمى صرخة اهتزت لها أقطار الدنيـــا .. وسقطت ثمار الحقول !

فزعت من نومى حافيا وتعلقت بثوبها .

ولأنها الصرخـــة الأولى التى تسمعها القريـــة منذ موت زغلول ، وأحداث دمياط ودنشواى والمنصورة فقد تجمع الناس فى لغط فازع مفزوع تطـــايرت خـــلاله عشرات الأســـئلة ، وتصادمت مئات العيون .

ثم سكن الجميع حين أخبر الشرطى أبى بموت محمود !

ــ كبد •••••• ى !!

صرخت أمى ، وسقطت على الأرض •

تمالك أبى فتعقبناه الى نقطة البوليس •

كان الظلام حالكا •• والأرض باردة ، ومبتلة •

فزلق أبى عدة مرات •• ولطمت خدى عدة مرات ••

وشعرت بالبرد يصدمنى ، ويؤلم شفتى وأسنانى !

طلب الضابط بطاقة أبى •• وتريث قبل أن يؤكد الخبر

وحين تعجل والدى ذلك ، وكاد يشق هدومه ، مد الضابط

يده بثياب محمود •• وساعته ، فتهدج صوت أبى ، وارتجفت يده الممدودة فى الهواء الثقيل •• وتصلبت !

صرخت بأعلى صوتى ولعنت العالم

لعنت حظى ، وبكيت •

حملنى رجل الى الخارج •• فازدادت الدنيا برودة

صرخت باسم شقيقى غير مصدق •

« محمود ••

ثمر المستحيل الداني ..

شجر القلب الوارف

انني أصدق موت عزرائيل ..

ولا أصدق موتك يا محمود » !

*

كانت المصابيح قد تزاحمت ، حين وقفت العربة عند المقابر ، ونزل عساكر كثيرون وحين أنزلوه صرخت أمي وسقط البرد

صافح كبيرهم أبي فاخترقت الرصاصات كبد السماء وسال دم

طلب أبي رؤية ابنه قبل أن يدفن ، فمنعه الرجل الكبير .. ذو النجوم على كتفيه وقال ان للموت حرمة !

وحين أصر أبي على ذلك ، أخذه الرجل الى هناك متحرجا ...

وأزاح الحجاب عن كومة من اللحم المعجون .. والدم المتجلط .. فصرخ أبي فزعا وأغلق أنفه متقززا

وحين تقيأ جانبا ، صرخت النسوة ولطمن الخدود .

ومن بعيد عوت الذئاب ، ووثبت الضفادع فى أماكنها .

صرح زميل لمحمود انه لم يبك على أبيه مثلما بكى على محمود .. فسألته أمى ان كان قد طلب شيئا قبل ان يموت ..

ـ سأل ؟ ضحك ؟ نام ؟ بكى ؟ أكل ؟ شرب ؟

ـ .... !!

أكد قائده انه أبلى بلاء حسنا فى الحرب ، فسخر أبى وقال « أى حرب يا حضرة المحارب ؟ أنت لا تعرف معنى ان يموت ابن . وتحاول ان تبادله بكلمات . أسكت يا حضرة المحارب شكرا » .

صرخت بأعلى صوتى : فلتسقط اسرائيل .

نهرنى أحدهم وقال كف عن الشعارات !!

تعالت نقنقات الضفادع ، وتصادمت الرعود والمشاعر

ـ « اسرائيل .. لماذا تقتل اخوتنا وأصدقاءنا .. ومن نحب من الناس ؟

لماذا تأخذهم الى حجرتها البعيدة المظلمة ، وتعيدهم مفرومين ؟

الا تجد من يضربها .. ويقذفها بالطوب » ؟

فى الصباح هربت من أبى وسافرت الى المركز .. قلت لمندوب التجنيد : أريد ان أتطوع فورا .

رمقنى بطريقة لم تعجبنى ، وسألنى باستهانة : كم عمرك يا حبيبى ؟

شببت على أطراف أصابعى وقلت : ١١ سنة .

ضحك وسألنى : ولماذا تريد ان تتطوع فورا .. فورا ؟

قلت : لأحارب من قتلوا أخى .. وبكيت .

ربت على ظهرى ونصحنى كثيرا فدفعت يده وتضورت كمدا . قلت :

ــ ألا تملكون سوى النصائح ؟

بهت الرجل فتركته ومضيت . سألت رجلا عن الطريق الى الحرب فتركنى ومضى !

فكرت ان أذهب الى هنــاك وحدى .. لكن البرد كان فظيعــا ..

والريح تدخل عينى ولا تطلع أبدا .

فهل تمر الأمور بكل هذه البساطة ؟

كان ــ يا الهى .. هل أصبح محمود يأتى بعد « كان » ؟

كان يجلسني فوق وابور البمب ، ويقذفني كالريشة ، يحملني على كتفه فاكاد ألمس النجوم .

« كان » .. و « كان » .. و « كان » .

وكنت أستظل بشجاعته ، وأفتخر أمام الأولاد بانتسابي اليه ..

كان يكفي ان أصيح مناديا : يا محمود . ليكف الأولاد عن ضربي .

وكأنني استجرت بالسيد البدوي : يا بدوي !

كان يحدثني عن الحرب ، وعن هزيمتنا المخجلة .. عن عرابي وأحمس وقطز .

ويوم طلبوه للجهاد لم ينم ، ولم أنم !

وحين أتانا شاحبا مغبرا ضحكنا من شعره الحليق ، ومظهره « المبعكك » .

بعدت عنه حتى لا يفرم قدمي بحذائه الثقيل .. لحظ ذلك فطاردني ضاحكا

تمنيت ان يطاردني ما حييت ، وتعجلت اليوم الذي ألبس مثله !

عانقته أمى وذبحت بطـة كبيرة ، أمضيت الليل ــ أنـا وأخواتى ــ تتأمل حذاءه الغريب وندخل سيقاننا فيه فنسقط على الأرض .

نتعارك لنحمله على صدورنا الصغيرة ..

وحين سافر لم نجد ما يضحكنا .

ــ كبدى .. دى .. دى .. دى !!

*

كان أبى يستضيف بعض رجالات القرية ، ويستمعون ــ بشغف مدهش داهش ــ الى اذاعة أجنبية بعيدة .

وكنت أسألهم كثيرا .. كثيرا . فلا يجيبنى أحد .

ويـوم غلبنى الفضـول ضربنى أبى ، وأمرنى أن ألعب بعيـدا ..

ثم صالحنى بعدها ، وربت على كتفى ..

قال ان الاذاعات الأجنبيـة تقول الحقيقة ، وتعرف عنـا أكثر مما نعرف عن أنفسنا !!

وفى المساء انطلقت الزغاريد والصرخات : عبرنا يا ولاد . عبرنـا .

تناقل الخبر بسرعة البرق فى أنحـاء القرية ، عبرنا •• عبرنا •• عبرنا •

تركت عشائى وجريت الى الشارع مرددا : عبرنا يا ولاد عبرنا والنبى !

تجمع الأولاد حولى يستفسرون فلم أكف عن الصياح • جرينا مرددين :

ــ يا عزيز يا عزيز كبه تاخد لنجليز

صــاح أحدنا :

ــ يا وابور يا مولع •• طش الفحم

فنهرناه وصاح آخر :

ــ يا مطره رخى •• رخى •

فضربناه ، وصحنـا فى صـوت واحد ، ونحن نتقاطر فى الطرقات الموحلة :

ــ يا عزيز •• يا عزيز •• كبه تاخد لنجليز •

شاركنا الشيخ صلاح الأهبل ، فلم نقذفه بالطوب • وجرينا نحو الحقول حتى هدنا التعب

انتظرت محمود كثيرا ولم يعد •• نمت عند محطة القطار

حتى ملنى الناظر .. سمعت نشرات الأخبار وبيانات الحروب ، سألت كل العائدين والجرحى .. كل الخفر والمحصلين والركاب

أمرنى ناظر القطـارات ان أذهب من المطر ، فلم أمتثل لأمره . قال ان أخاك مات وأنت تعرف ..

فرميته بالطوب وجريت باكيا .

رأيت الشيخ صـلاح يكمن للأعـداء فى قصب الحقول فأهملته ومضيت . سمعته يصيح :

ــ يا عزيز .. يا عزيز كبه تاخد لنجليز .

فكرت ان أنتظر معه ، وأحضر فأسى الصغيرة ، لكن المطر كان شديدا فحضنت حذائى وجريت .

فى البيت رأيت كومة من النساء يبكين حول أمى ، ويلطمن الخدود : « من قتلك يا كبدى .. يا بسيط الروح .. يا خفيف القـدم » .

« بينما أصبح أبى ــ وقد امتنع عن الطعـام والشراب والنوم ــ يمضى كل أيامه فى الجامع ساكتا ولا يأتى الا لينـام دقائق معـدودات يقوم بعدها مفزوعا ، ويجـرى الى دورة الميـاه » !

نادتنى احدى النساء وأجلستنى على حجرها مواســية ، لكنى دفعتها ومضيت الى غرفتى وفى داخلى شىء يشتعل •

حتى أوقف الراديو موســيقاه ، وقــال ان العدو يخترق الصفوف • ثم توقف الارسال تماما وترمدت الدنيا •

حينئذ سمعنا من يكسر الزجــاج والأبواب ، ويجرى فى الطرقات كالمجنون :

ــ حنحارب •• حنحارب •• حنحارب !!

جريت حافيا مرتعبا فى الشوارع الباردة المعتمة ، فوجدته أبى ، وقد شقت ثيابه وشاخت حركته ، فتجمع الناس فى لغط ، وملأوا الطرقات بالفئوس والمناجل ، ثم ركبوا جميعا الى البندر البعيد •• البعيد •• البعيد ••

ولم يعد واحد منهم كما ذهب !!

القاهرة ١٩٨٢

تطهر الفـارس القديم

« من الممكن سحق الانســان .. لكن هزيمته غير ممكنه » .

أرنست هيمنجواى

من ثقب باب غرفتى رأيت « بابا » يقطـع الصـالة على مقعده المتحرك وينفث الدخان بقلق واضطراب !

وحين طلب قهوة جديدة ، حاولت « ماما » أن تؤجلها ، لكنه صرخ فيها وأمرها بالاذعان فاذعنت .

ثم قطع الصالة من جديد •• وفتح « الراديو » فتوقفت الموسيقى العسكرية وأعلن المذيع ان العدو يخترق الصفوف وان الـ ••••

صرخ أبى بأعلى صوته ، ولطم « الراديو » فحطمه •• ورأيت دمه ينثال على كفه فأغمضت عينى وانزويت !

حينذاك أسرعت ماما اليه ، وحاولت ان تساعده ، لكنـه منعها من بعيد ودفن وجهه بين راحتيه ، وسمعناه يغمغم بانكسار وارتيـاع :

ـ مستحيل •• مستحيل !!

فيما أسرعت ماما الى غرفتى ، وأخذتنى الى حضنها ، بينما الانفجارات تتناهى من بعيد ، وتصبغ السماء بلون الدم •

*

كان الليل قد انتصف ، حين غرقت المدينـة فى الظـلام والصياح •• وسمعنا المجنزرات تعبر الطريق المشبع بالمطر ، وأبواقا تأمر بالسـلام والاستسلام ، و « سارينات » الحريق والانقاذ تبتعد وتقترب •

بينما السـماء تبرق بالبارود والمطر ، وتختلط الرعـود بالبروق •

حينذاك طلب « بابا » بندقية جدى القديسة ، وقبل ان تتكلم قال : لا تهم الذخيرة .

وحين أطفأ النور سمعناه يمضى نحو « البلكونة » المتربة ، وأزيز كرسيه يزداد انفعالا .

*

قبل انقطاع الحرارة اتصل خالى ونصحنا باغلاق الغاز وصنابير المياه .. ورجانا ان ننزل للمخابىء فورا .. لكن أبى رفض ذلك ، وأكد ان المرء لا يجب أن يطلب من الجندى ترك موقعه كى ينجو بحياته .. وسمعناه يحد السكين ويضعه موضع « السونكى » وقرب الفجر سمعناه يضحك ، ويأمر جيوشا لا نراها ، فخافت ماما ورجته أن يدخل من البرد والظلام . ويكفى ما حدث لنا ..

« فمازلنا نذكر يوم رأيناه مضرجا بدمائه ولا يذكر اسماءنا ..

يوم تلهفنا على « آهـه » منه توحى بأنه على قيد الحياة .

ويوم نادانى سقط القلب منى .. وحين

تحسست طريقى اليه شعرت بقلبه ينقبض كطـائر ذبيح ، وساقيه المبتورتين تنغرسان فى بطنى ..

بينما الكشافات تمسح السماء الحبلى بالرعود والمطر !!

فهل آن لليل أن ينجلى .. أم آن للقلب ان ينفطر ؟ ! »

*

لم يغضب أبى حين ماطلوه فى « المعاشات » ، ولا حين تخطوه فى السفر للعلاج .

كان يعرف ان أطباء الدنيا لا يمكنهم اعـادة ساقيه ، ويعرف ان الفشل يبدد الرجاء ويعرف ان المـال وسيلة ، وانه يحقق غاية من « غايات » الانسان المتجددة .

لذلك لم يغضب حين سلم سلاحه ونجوم كتفيه ، ولا حين تصلبت يده وهو يصـافح رفاقه مودعا ، ولا حين رأى الزبالين يبنون العمارات ويسكنون الأعـالى كان يعرف انها مرحلة ، ولا بد أن تنقضى . وان الحروب لا تنتهى بوقف اطلاق النار . لكن حربه الحقيقية بدأت حين أوفدت البلدية من يزيل السواتر ، ورآهم يهدمون السـور الطوبى من أمام عمارتنـا . ويزيلون

اللون الأزرق عن النوافذ والسيارات ورأى من يبول فى المخابىء .. ويملأها بالقمامة .

كان يصيح من البلكونه التى تشبه البرج : الحرب منتهتش يا أولاد الغجر .. فيتغامزون ويتلامزون ، يقذفهم بما فى يده فيطلبون المزيد !!

يجيل بصره فى الميدان الممتلىء — ما يزال — بطوب السواتر .. وحطام المدافع .

وحين يعود لغرفته آخر الليل يشعر بألم فى صدره .. يشكو من خدر فى نصفه الأيمن .

من مرارة القهوة

ومن الجرائد التى لا تتغير أبدا .

يأتى الطبيب وينفى ما يزعمه فلا يصدقه .. يهاجمه ويشكك فى علمه . فلا يملك الرجل سوى ان يكتب له « مسكنات ومهدئات » بعد أن تؤكد ماما انه لا ينام ، وان نام فانه يهب فزعا ، وينبطح على الأرض .. يركل اللحاف ويقذف بالوسائد .. ينادى على اسماء لا نعرفها ويأمر بالهجوم فتصحو أمى وتغطيه !!

*

ـ يا أولاد الـ ••• الحرب منتهتش •

ويرنو لصورته على الحائط البعيد •• من هـذه النقطة بالضبط دخلت الشظايا •• ومن هنا بترت الساقان •• ومن هنا لمست الكتف ، ومن هنا مزقت « القايش » ومن هنا دنت من القـلب !

وفى هذه الصورة تبدو نجمته الأولى على كتفه العريض • يمناه مرفوعة أعلى حاجبه وعيناه تنظران بثبات وامتنان لقـائد لا نراه فى الصورة •

وفى هذه الصورة يضع يسراه على كتف أمى •• البدلة : « مكويه » والحذاء جديد والعروس ترنو اليه بعين أم • فلاحة تخاف على فرخها من صقور مصر • وبنات مصر !

القفاز : أبيض ، ومشغول بالدانتيل • وباقة الورد لا تخفى فرحة القلب •

والتاج : لا يخفى لمعة العينين •

وفى هذه الصورة يحملنى على صدره المشعر ، والبحر من حولنا يلطم الوجوه يطـاردنى فيزداد صراخى أجرى الى أمى فينحسر البحر ، وتخجل الرمال •

نأكل الكابوريا فى المنتزه ، ونأكل الفيشـار فى محطـة

الرمل • وحين تنتهى الأجازة نعود للسويس مضمخين بعطرك يا ثغر !

فهل تمضى الأيام كما نشتهى نحن ••

أم تأتى الريح •• بما لا تشتهى السفن ؟

*

عاد الراديو يتحــدث عن اختراق الصــفوف ، عن حرق « الجناين » ودخول « الدفرسوار » فعاد أبى وأدمى راحته •

أسرعت ماما « بالميكروكروم » لكنه رفض ، وسمعت أزيز كرسيه يزداد انفعالا فتحت باب غرفتى فرأيته كاملا •• على مقعده ، بينما سترة الميدان معلقة بنجومها ودمائها على الحائط البعيد • « والبشــكير » القطنى الثقيل ينزلق رويدا رويدا فيكشف عن ساقيه المبتورتين •

*

كانوا قد انتحوا بعمى جانبا ، وسألوه ان كان يرغب فى دفن الساقين ، أم يتصرفون بمعرفتهم ؟

ثم انتحوا بأمى ، وسلموها شنطة بها ســاعته ومذكراته وحافظته ، ونيشان قديم أزيل عنه الدم •

وشعرت بمن يربت على كتفى ويسألنى عن دراستى ..
فرأيت العنبر مكتظا بأناس غير أبى ، ودموع غير دموعى .

رؤوس مضمدة ، وسيقان معلقة ، سواعد فى جبائر ..
وأجسام بلا سيقان ولا سواعد .

صراخ وسيارات وامضة « يود » و « فورمالين »
و « ديتول » ودم .

أشباح بيضاء تجرى فى الطرقات هائمة ، وأشباح تتلوى
على عجلات تجرى كشوف بأسماء الموتى ، وكشوف يتهافت
عليها الأحياء !

دموع واغماء خارج السور الحديدى .. اصرار ..
وشجار .. ورجاء .. وعويل لافتة تحديد الزيارات وأسماء
المرضى .. ويد تمتد من السماء وتختار !!

بيانات نارية يطلقها المذياع . وصفارات تدوم وتتقطع .

لافته تضىء وتنطفىء .. تعلن عن مستشفى الـ ...

قالوا لعمى : لابد من القاهرة .. امكانيات أوفر ،
وأمن أكثر .

وقالوا لأمى : السويس فى خطر .. قد نحاصر .. وقد
نحتل . اهربى بجلدك .

وأشاروا لحديقة المستشفى وقد امتلأت بالأسرة ، ورأينا الجراحات تتم فى الطرقـات والمطـابخ •• وتكلموا عن ندرة الميـاه ، ومحنـة الجيش الثالث وانتشـار الفئران والحرائق والأوبئـة •

وكانوا على حق •

فما كدنا نغـادر السـويس ، حتى سـمعنا عن حرب الشـوارع •• عن محمـود زرد وعبد العـاطى ، وشـفيق عبد السلام • عن العجوز التى فتحت دبابة ، وألقت بقنبلة •

عن الصعيدى الذى حضن صاروخا ـ قبل ان ينفجر ـ وغرق فى القناة •

عن الشجرة التى سقطت على الطريق فعرقلت كتيبة •

وسمعنا الاذاعات والنشرات والبلاوى • وسمعنا الراديو يقول « يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى •• استشهد تحتك وتعيشى انتى » •• وسمعناه يقول :

« خل السلاح صاحى •• صاحى •• صاحى » •

وسمعنا أنين أبى •• ورأينـاه يتفحصنا بنظرات ذاهبـة متسائلة •• بينما عربة الاسـعاف تشـق الطريق الترابى الى القـاهرة •

لبرهة قصيرة فكرت فيما يمكن أن تؤول اليه الحياة بعد موته فلم أستطع وكدت أجن .

لكننى تمليته وكأننى أراه لأول مرة ، وأدهشنى اننى لم أكن أعرف أبى كل المعرفة .

لم أعانق تفاصيله وملامحه كما ينبغى .

وعرفت أن معرفتى له كانت معرفة كلية شمولية تشوبها العاطفة وتغلفها الألفة والاعتياد .

فهالنى ان أكتشف صفاء بشرته .

وان أرى شاربه بكل هـذا الجمال والانتظام .

أو ألمح فى جبهته كل هذا الامتداد الملكى النبيل .

تفاصيل يخفيها « الاحساس » بالمعرفة ، ويدعمها غيابه كمقاتل فى الميدان كنا نعرف أن يأتى ليستريح من رتابة الصحراء .. وظلام المخابىء ولكن هل كنا نعرف انه سيأتى على نقالة ؟

كان هذا الاحتمال قائما ، حين رفض ان يعبر القناة سنة ٦٧ وتمنى أن يأخذ سيناء فى حضنه . لكن زميلا لا يذكره دفعه الى القناة ، وصاح فيه : اسبح .. اسبح اهرب بجلدك .

فلعن اليوم الذى تعلم فيه السباحة ، ولم يشعر بملح البحر على خدوشه ورضوضه الصغيرة ، لكنه شعر وهو فى منتصف القناة انه لا يسبح ، ولكنه يضرب الدنيا بقبضتيه .. يضرب نفسه .. يضرب من خانوه ، وأهانوه ، وسحقوا كبرياءه .

ولم يدر بما حدث .. لكنه عرف أنهم سحبوه قبل ان يغرق وسلموه لـ « معسكر التجمع » بعد أن فقد سلاحه وخوذته وحافظة نقوده وقناعاته ووجد نفسه فجأة بين أبطال وجبناء .. أعداء وأصدقاء ، فطاح فى الجميع ضربا وعضا .. وتركهم يضربوه حتى عاوده الاغماء .

*

رفض أبى أى تهجير وأكد انه مقاتل ، وانه مازال تحت العلاج .. لكن القائد ربت على يده وقال له : استرح يا عقيد زيدان .. فقد أديت واجبك .. وعليك ان تحافظ على حياتك وحياة أسرتك بعيدا عن أى تهديد .. وقبل أن يتكلم أبى قال القائد :

ــ حقوقك ستصلك كاملة وسندعوك لتتسلم الوسام .. و .. حاول أن يصافحه لكن أبى استدار بكرسيه ، ورفض ان ينتهى الأمر .

قال انه : لن ينهى حياته فوق سطح مدرسة ، أو فناء جمعية زراعية « أنا مقاتل أمضيت عمرى بين جنودى وضباطى • من أجل هذا البلد وضعنا أرواحنا وسعادتنا على أكفنا » •

ـ لكننا لا نضمن حياتك فى السويس !

ـ وهل تضمن حياتك فى برج مشيد ؟

ـ الأعمار بيد الله • لكن لا تنسى ان هناك دواعى أمن و ••

ـ أنا لست سائحا يا سيادة اللواء • أنا من طين هذا البلد •

ـ نعم ولكن كيف نضمن ألا تثير المتاعب ؟

ـ متاعب ؟

ـ التقارير تشير الى حماستك الزائدة ، ونحن لا نحب ان يتدخل أحد فى سير المعارك أو اجراءات الأمن •

ـ ولكننى مقاتل و ••

ـ كنت يا سيادة العقيد •

انغرزت هذه العبارة فى صدر أبى كالسيف المسموم •• لقد ووجه بما كان يخشاه ، ويؤجل سطوعه •• فبادر القائد

بالاعتــذار ، وأكد ان فهم الحقيقــة خير من تجاهلها • نحن بطبيعة الحــال نقدر شــجاعتك الفائقة •• اذ لا يوجد قائد يفتح حقل ألغام بقدميه ، أو يتقدم الصفوف بهذه الطريقة التى أراها ـــ من جانبى ـــ انتحارية •

ـــ لكننى تقدمت واخترقت الصفوف ومنحتكم ظهرى •• فلا أنتم ساعدتمونى ولا حميتم أنفسكم •

ـــ عقيد زيدان لا تنس ان الحرب قد انتهت • واننـــا الآن تتكلم عن ماض فات ومات وأنت تعرف ان بناء عشــة خير من البكاء على أطلال قصر • فما هو ضمانك ؟

ـــ هــذا •

وأشـــار أبى الى مقعده المتحرك ، فبدا الرجــل وكأنه اكتشف ذلك لأول مرة فاعتذر •• ولبى طلباته •

فهل كان يعرف النهاية ؟

❋

البداية لم تكن سهلة بأى حال !

اذ أمضى أبى عدة شــهور يتدرب على مقعده الجديد ،

ويتعلم كيف يدير اطاريه المعدنيين ، وكيف يتقدم ، ويستدير ، ويتخطى عتبة المرحاض • لم تكن البداية سهلة بأى حال !

اذ كان يرفض ان يساعده أحد ، فاحترمنا هــذه الرغبة حتى لا تتفاقم عذاباته •

وحين ينام نرقب العنت الذى يلاقيه حتى ينتقل من مقعده الى سريره وحين نفتح الباب لنساعده يصرخ ويخفى ركبتيه •• وكأنه تعرى فى ميدان عام تطارده الكوابيس فيصحو ولا ينام •

يضيق بعجزه فيحــاول النزول فيسقط ، يحــاول السير على ساقيه فلا يستطيع يطلب الأكل ولا يأكل • يشعل سيجارة ولا يكملها •• نكلمه فلا يطيل •• ترجوه أمى ان ينزل الدنيا عن رأســه ، ويعرف ان حدوده تنتهى عند باب شقته فيثور ويزجرهــا •

يتحسس سترة الميدان التى حجرها الدم •• ويضمها الى صدره كأنه طفلة تضم عروستها •

يكتب على ورق ويمزقه •

يحاول ان يضبط ساعته فيجدها مضبوطة •

ينظر الى النوافذ المغلقة •• فينقبض قلبه •

ينظر الى ثقب بابى فيرى دموعى !

*

النهاية أيضا لم تكن سهلة .

اذ رفض أبى ان يسلم سلاحه ، قال ان كانت حربكم قد انتهت .. فحربى لم تنته بعد ؛ فانسحب الملازم معظما .. وفى المساء اضطر قائد المنطقة ان يصعد بنفسه ، وان يطوق المكان بالحراسة اللازمة .

ـ ألم أقل لك انك ستسبب لى المشاكل ؟ .

قال اللواء ذلك حين فتحت الباب وأصبح على قيد مترين من أبى .

ـ زيدان لابد أن تعرف . انه ليس سـلاحك . وان الجيش قد جمع ما وزعه على رجال المقاومة الشعبية . اعقل يا زيدان .. انت تعرض نفسك للمحاكمة وتعرضنى للحرج .

وظل يقترب رويدا رويدا حتى لامس كتف أبى ، وبين دهشة الجميع وذهولهم ، سحب أبى المسدس من تحت مقعدته ، وصوبه نحو القائد الذى وقف مبهوتا . وفى آخر لحظة .. ودون ان ينبس بكلمة ، أدار المسدس وسلمه للقائد . الذى

سلمه بدوره لأحد الضباط • وربت على كتف أبى مواسيا ومتسامحا •

وقبل ان يغلق الباب خلفه صاح أبى مؤكدا : « ان كانت حربكم قد انتهت •• فحربى قد بدأت » ! فضحك الرجل وقال ان بين الحرب والحرب فنجان شاى •• والمجد لمن يستمر •• ومن يضحك فى النهاية » •

*

بدأت الناس تتكلم عن التعمير •• وعن فتح القناة ، ولم نصدق ذلك حتى رأينا أول « كراكة » ، وأول « عربة أسمنت »

فى هذا اليوم بالضبط فتح أبى حدوده ، فنزل الى الشارع لأول مرة •• وكلما تلفت حواليه ازداد قلبه انقباضا • وانحسرت سعادته ••

كانت السويس ما تزال تلعق جراحها •• وترنو للبعيد ••

وعلى صدرها تنام أنقاض •• وشظايا •• وحرائق خامدة •

عمارات تتساند وأخرى لم يبق فيها سوى جدران •• صور لأحياء وموتى ترنو للمدينة من « براويز » مائلة •• أسرة

تعلقت بين السماء والأرض كراريس أطفال كتب فيها نصف « الواجب » . وأحذية لم تلبس بعد ..

أوان ثقبهـا الرصـاص ، وأخرى يؤرجحـها الهواء فى المطـابخ .

دروع ممزقة . وطيور نافقة !

متى حدث هذا .. وأين كان ؟ هل حدث كل ذلك فى غيابه ؟ أثناء نومه ؟ وماذا يقول لأصحابها حين يعودون .

تمنى لو أزال الانقاض بكفيه .. لو واتته القدرة على بناء ما تهدم .

لو يطمئن على « الزيتية » و « الأدبية » لو يمشى الى حى الغريب .

لو يحتضن كل الأماكن التى عرفها .. وعشقها ..

الشجر الذى تظلل به ، وأكل من ثماره .

« الكورنيش » الذى شهد ذكرياته ، وحبه الأول .

الأمل الذى تعلق به ، وراهن عليه بعمره .

والآن .. وبعد ان انتهت « الكراكات » من رفع الألغام وحطام السفن وعـاد المهجرون وتبادلوا القبلات والدمعات ..

وضبطت الساعات والمشـاعر ، لبس أبى أحلى ثيابه ، بعد أن استحم وتعطر وكأنه ذاهب لعروسه وبين دهشة الجميع نزل بمقعده على سـلم العمـارة دون أن يساعد أحدهم فزغردت « ماما » •• وشعرت بالأرض تميد تحت قدمى •

جريت الى « البلكونة » فوجـدته قد أزال « شـكائر الرمل » ووضع بندقية جدى فى مكانها القديم •

ومن « البلكونة » رأيت الناس تحمله على أكتافها وهو يضحك ويصافح الجميع •

وحين وصلنا لمقهى الميناء استقبله عم وهدان بالأحضـان والقبلات وبعد أن تأمل ساقيه •• ابتعد ليخفى دمعتيه •

وحين وجد أبى نفسه فى مكانه الأثير •• تفجرت عواطفه • ففى هذا « الروف » الذى لم تدركه القنابل قابل خطيبته قبل عشرين عاما •• ومن هنا رأى كتف آخر جندى انجليزى ، ومن هنا رأى فرحة التأميم ، وقاوم الحلفاء ، ومن هنا خطف أول قبلة ، وشرب أحلى ليموناده •

فهل آن للقلب أن يستريح •

*

لم يستطع « بابا » مقاومة دموعه وهو يرى النوارس تعود من جديد ، ورأى أول « طلبيـة » لزبائن المقهى الأثير ، وأول قافلة تعبر القنـاة . وأول طائرة مدنية وأول طفلة تلعب بدميتها ، وأول جريدة تدخل ، وأتوبيس عام يتحرك .

شـعر بأنه ساهم فى هـذا فدمعت عيناه . وهو قاعد بين أصحابه هو الذى وضع فى جيبه كل مفاتيح المدينة .

كان يستطيع أن يفتح شقة سعدون فى غيابه ، ويطمن على « عفش » شوقية .

يتفرج على تليفزيون أم أحمد ، ويفتح ثلاجة عبد المسيح.

يأخذ سنارة هويدى ويقرأ فى مصحف الحاج مسعود .

يقرض أم بيومى ويعزى المقدس بباوى .

وهو الذى حمى بيت محـمود ، وأنقذ سـيارة فتحى فى غيابـه .

وهو الذى دفن أم سعفان ، وستر فتحية بمحروس . وهو الذى بنى جدار الجامع ورمم محراب الكنيسة .

وهو الذى عرض كليته لانقاذ جندى لا يعرفه ، وروى زهور المستر ميشيل فى غيابه .

لم ينظر لنجوم كتفيه ، أو يكلم النـاس من أنفـه ، ولم يشغله انه ضابط وعلى الآخرين أن « ينضبطوا » •

كان يعرف انه مواطن بدرجة مقدم ، وان من يخدمه الآن ربما ساهم في دخوله الكلية أو عشاه ذات ليلة أو سقاه ، أو أنقذه من غرق ، أو علمه في مدرسة أو برأه من مرضى • أو شارك في عرسه ، وربما شارك في وداعه !

هم أهله وبلدياته •

جزء من عجينته وحرارته •

يعرفهم بالاسم ويعرفونه •

ويعرف الجد الذى حفر ، والجد الذى هرب ، والذى قتله الألبان والمماليك من الجنوب جاءوا ومن الشمال •

« القيد في اليد ، والدمع في القلب » !

من الشرقية جاء جده الكبير • فلاح لا يعرف الكتابة ، لكنه يعرف أسرار الأرض •• شرقاوى يعرف أدهم ، ويحكى ما جرى للهلالى وابن شداد •

قالوا أحفر فحفر ، أرفع فرفع • أزرع فزرع وبعدها تزوج وعاش في السويس لم يقطع الطريق على أحد ، ولم يشته امرأة جاره • صبور يعرف حدود الصبر ويعرف شعلة الايمان •

شرب أبى قهوته وتابع المشهد من بعيد .. ها هى القافلة تقترب ، وها هى الزغـاريد تطهر المكان ، وها هو محروس البمبوطى يعرض « عادياته » من جديد ، شاب شعره نعم ولكنه لم يفقد ابتسامته ، وها هى المعلمـة جمالات تفتح دكانها .. فقدت زوجها فى الغربة اللعينة ، ولكنها أنجبت طفلين !! وها هو حلمى الفوال وسعيد الحـلاق ومحمود الفطـاطرى . ووليم البقال . بدوى الحداد . والكابتن بيومى مدرب الأشبال . ها هم « السوايسه » أهله وعشيرته . أولاد الأرض وعطرها الباقى . بسمرتهم ، ويفاعتهم المميزة . نموذج معدل من سكان مصر :

من « السيناويه » أخذوا قوامهم ، ومن « الشراقوه » كرمهم ، ومن « السواحليه » شـطارتهم ومن « البحاروه » طبيعتهم وحبهم للأرض .

يبيع لك الهواء ، ولكنه لا يخدعك . وان أحبك دفع على شرفك كل ما معه ، وان عاركك كان أول معتذر !!

وهاهم أولادهم الذين هجروا ، أو ولدوا فى الغربة . لم يرهم نعم ، ولكنـه لو أمعن قليـلا لعرفهم من عيونهم التى لا تكذب ولا تخون .

فهل آن لهم أن يبنوا أعشاشهم ؟ خنادقهم ؟ قبورهم ؟

ليتقدموا الآن وليرفعوا عن صــدره شعلة أوقدها بدمه آه •• ما أثقل القلب !!

❋

كانت القافلة قد تجاوزت المدينة ، حين ودع أبى أصحابه، وطلب أن أرافقه الى البيت •

وفى منتصف الطريق طلب — لأول مرة — أن أدفع مقعده لأنه لا يستطيع !

بينما الراديو يصيح من بعيد : « خلى السلاح صاحى •• صاحى •• صاحى » ونحن نقطع الطريق الذى بدأت أنواره تعمل على الجانبين وتعكس زبد الخليج ، وأمواجه الهادرة •

أشار أبى أن نتوقف قليلا ، ورأيته يرنو الى الشاطىء البعيد ، وقد نامت عليه النوارس !

وسمعنا نكات البحاروه على الصعايدة ، والصعايدة على البحاروه فضحك أبى لهذا وذاك وألف نكته عن السوايســة لكنــه لم يكملهــا وطلب أن أتركه هنــا ، وأذهب الى البيت فرفضت ، وحين أصر ذهبت وأتيت بأمى لتقنعه وترجعه وكان

الهواء قد تحول الى ريح •• والأمواج الى ما يشبه الأعصار والراديـو البعيـد ما يـزال يردد : « خـلى السـلاح صا •• ا •• ا •• حى » والكروان يشق بصياحه الظـلام وحين اقتربنا منه وجدناه ما يزال يرنو للخليج • وقد تجمد فمه على بسمة راضية أخيرة فصرخت أمى وشعرت بما حدث ، بينما البشكير القطنى الكبير تطوحه الرياح هنا وهناك دون يد تلمه ، أو عين تزيحه وتضمه •

فيتكور تحت الساقين المبتورتين ، مرة على شكل نوارس نزقه ، ومرة على شكل طائر خرافى •• يرفض أن يطير !!

بورسعيد ١٩٨٧ م

الجمـــل

للمرة العشرين قـامت أمي وقعـدت وبعد ان قـامت وقعدت •• قامت وقعدت

حاولت أن تدخل غرفة العمليات فمنعها الناس وأعادوها الى صالة الانتظار •

فقامت وقعدت ، ثم قامت وقعدت وفى كل مرة يصـدر مقعدها أنينا يتكرر ودعاء يتجدد •

وكلمـا صرخ أخى دفعتنى الى خالتى ، وجرت اليه هائمة

مخدرة ، وبعدها تعود مكلومة ودامعـة وحين تلحظ دمعى تأخذنى الى حضنها وتحاول الابتسام فلا أصدقها •

ـ ستعيش يا جملى •• ستعيش يا كبدى !

تغمغم فلا يسمعها أحد •

وبين الحين والحين تفرك كفيها وينادى عليه فلا يسمعها •

وعلى الأرض الرخامية تتقاطع خيوط دم •• ومن الخارج تأتينا صفارات الانذار ، وصراخ العسكريين وصرير الدبابات على الأرض المبتلة فتقوم أمى ، وتنـادى على « يوسـف » فلا يرد تنادى وتمد فى اسم أبيه وأجداده • فلا يأتى ولا يجيب •

وحين يؤكد الأطباء انهم خدروه لا تصدقهم !

وتمسح دمعتها بطرحتهـا السـوداء التى لم تغيرها منذ مات أبى •

وأسمعها ترد على أسئلة لا يسمعها أحد سواها •

ـ يوسف •• ماذا بقى فى القلب ؟

ـ يوسف •• ماذا بقى فى العين ؟

وفى كل مرة تأخذ شالها وتذهب ليغطيـه ، فتعود وهى تمسح به عينيها •

وكلما جاء مقاتل جديد ، تقوم ولا تجلس قبل أن تنتصف ساعة .

تأخذني الى حضنها فاسمع وجيف قلبها وأشعر بدمعها على كتفي حصوتين من الملح والخل .

فلماذا يأتي الناس مخضبين بدمائهم ؟

لماذا يرحل الأصدقاء .. وتهرب العصافير ؟

قالوا : الكهرباء قطعت ، ولا يوجد « بنج » لكل الناس .

وقالوا : انها الحرب ، فقامت أمي وقعدت ثم قامت وقعدت .

وعلى النافذة البعيدة ، وقف عصفور بلا أب ولعق جناحيه .

وما كاد يسمع أول صرخة حتى طار فزعا في سماء بدت ضيقة ورمادية .

وحين خرج الأطباء منكسي الرؤوس سمعت صرخة أمي ، ورأيت عزرائيل يقوم متثائبا .

ويغادرنا ــ صامتا ــ الى هناك !!

- أحزان النورس البرى
- سبع وريقات شخصية جدا ..
- لعــامل التحويلة المنتحر
- حكاية أخيرة قبل النوم

أحزان النورس البرى

قابلنى تحت مظلة الباص .

صرخ فى وجهى .. وأقبل نحوى .

مددت يدى لأصافحه فعانقنى ، وسألنى مهتما :

ــ أين أنت يا رجل ؟

حاولت ان أقول شيئا .. لكنه بادرنى متسائلا :

ــ ألا تذكرنى ؟

حاولت أن اجهد ذاكرتى ، لكن سنوات الاعتقال كانت قد غسلت عقلى ، وسحقت ذكرياتى .

ـ « آه .. هكذا الدنيا » قـال الرجـل ذلك حين لم أجبه ، ثم تنفس بعمق وأردف :

ـ ولكن أين كنت كل هذه السنين ؟

ـ فى الاعتقـال !

تراجع خطوتين ، وسألنى : « لمـاذا » . فلم أجد ما يقال . « أنا نفسى لاأعرف لمـاذا .. بل ولا أعرف ـ حتى هـذه اللحظة ـ ان كنت قد نلت حريتى أم لا .. كل ما أعرفـه انهم أغلقوا الباب خلفى هذا الصباح .. وقالوا : « اذهب .. أنت برىء » . ثم قذفوا بحاجاتى وضحكوا !

قال الرجـل وهو يتراجع خطوة أخرى : الجو حار .. أليس كذلك ؟

قلت : بلى .. الجو بارد !

* « كانت طيور النورس البيضاء تتواثب فوق البحر ، وتغطى بعض صخوره البعيدة ، وحين تنفجر الأمواج فى نتوءات الصخر ، يطير النورس صائحا ثم يحط من جديد » .

ـ لم تقل لى لمـاذا اعتقلوك ؟

ـ لابد انهم يعرفون .

تراجع خطوة أخرى ، فازدادت الدنيا برودة ، وفقد البحر زرقتـه .

ــ الجو حار . أليس كذلك ؟

قلت : بلى . الجو بارد !

أعاد النظر الى حقيبتى القديمة ، وثيابى التى كانت طويلة قبل الاعتقال . ثم سألنى عما اذا كنت قد تزوجت أم لا ..

ولمـا نفيت ذلك ضحك بطفوله ، وعاتبنى ، ثم ضربنى على كتفى .

قال : لم أعرفك من بعيد .. منذ متى وأنت تلبس هـذه النظـارة ؟

ــ قبل ان أتخرج !

ــ وهل تخرجت ؟

ــ أظن اننى فعلت ذلك .

ــ حظك أفضل منى .. فقد رسبت فعملت بالتجارة .

ــ التجـارة ؟

ــ نعم . تجارة الأكياس ومخلفات السفن .

ــ السـفن ؟ !

ـ السفن .

ثم أخرج سجائره المستوردة وقدمها وهى مغلقة :

ـ تدخن ؟

رفعت فقال « أحسنت .. فالجو حار .. أليس كذلك » ؟

قلت : بلى .. الجو بارد !

* كانت طيور النورس قد هجرت صخورها ، وهامت فى الفضاء البكر . وكان على أن أطيل النظر اليها ، وأحسدها على ما تملك :

فضاء رائق بلا حدود .. بحار زبرجدية اللون .. غابات لا حصر لخضرتها ، وتنوعها .. سحاب وجليد فى لون الفيروز والقشدة .. ومع ذلك تحن للطين » !!

ـ أمازلت تكتب الشعر ؟ ..

وقبل أن أجيب مد يده بكارت يحمل اسمه وتليفوناته وقال انه مستعد لشراء أى قطعة أرض فى أى مكان ، أو توريد أى كمية من الأكياس الورقية ، والحبال البحرية ، والحديد الخردة وأشار الى تليفون المطبعة ، وقال انه يدفع بسخاء ، ويؤجر الفيللات ويصور المستندات .. و ..

ـ والفاتنات ؟

ــ فاتنات يا لك من وغــد ، لم تفقد براءتك بعد .. ذكرنى بالاسم من فضلك .

* « ها أنذا أرى النورس من جديد .. يهيم فى قفصه ، وأهيم فى قفصى ها أنذا أرى البحر كله .. والأفق كله .. انى لا أصدق عقلى كله » .

ــ ولكن كيف لا تذكرنى يا رجل .. أنا أذكرك !

ــ ....

ــ ألا تذكر يوم ضربنا الناظر و ...

ــ النــاظر ؟

ــ الناظر ! و « بدقة شيطانية رأيته قابعا فى ظلام عقلى البعيد . هناك فى ركن مطفأ الشموع . يسرق أكلى وأقلامى ، ويسرق أوراق الاجابة » أعاد النظر الى ساعته الذهبية ، وقال انها تأخرت .

قلت : من ؟

ــ زوجتى . وأعاد ترتيب اللفافات على كرشه الواضح .

« كان النورس يتعارك فوق البحر . وينقض على السمك الصغير فيمحقه بينما الشمس الخجول تخفى وجنتيها ، وتنام فى حضرة البحر » .

ـ اذن فأنت لا تذكرنى •• يا لها من أيام •• لكنهـا مضت على كل حال •

جاءت سيدة ممتلئة ، تركت سـيارة فارهه مكدسـة بالمشتروات ، وسمعت صديقى يعاتبها ثم يقدمها لى : زوجتى !

ثم قال كلاما كثيرا ، فقالت كلاما قليلا •• وحين صافحتنى شممت عطر ابطها وسعلت • لكزنى صديقى وسألنى ما رأيك•• أليست جميلة ؟

قلت : من •

ضحك وضربنى على ظهرى فاضطررت لأن ابتسم • كانت ترتدى ملابس متناقضـة الألوان ، ومؤذية للعين ، وترصـع أصابعها الممتلئة بالخواتم الذهبيـة الضخمة ورسغيها بالثعابين والجعارين •

ـ زميل دراستى •• لم أره منذ زمن بعيد

سألتنى : هل يقول الحقيقة ؟

فكرت ان أنفى ذلك ، لكنى قلت « ان ليس للحقيقة وجه واحـد » •

وزنتنى بعينيها ، ويبدو انهـا وجـدتنى أخف مما يجب

فضحكت •• وضحك زوجها مؤكدا : ان الشعراء يعيشون فى قصور من ورق !

ثم ربت على كتفى بعشم غير مقبول ، وسألنى عن طريقى• فقلت : لا أعرف •

ضحكت زوجته وأخفت أسنانها ، فهاج النورس متلاطما ، وتخثر المحـــار تحت أقدام العابرين •

ــ الجو حار أليس كذلك ؟

ــ بلى •• الجو بارد •

« كانت طيور النورس قــد ركبت شــيئا ما فى البحر ، وراحت تطلق صراخا مدويا ثم تطير من جديد ، ورأيت الناس تصرخ ــ بدورها ــ وتجرى الى هناك » •

ــ « غريق •• غريق » صاح صديقى •• ولمـا لم أجبه تركنى وتعقب زوجته الى هنــاك فتذكرت أختى المهــاجرة ، وصديقتى التى اختصرت الطريق الى السعادة ، والورس الذى لا يغرق أبدا •

ــ « أوه •• يا لها من حيــاة •• ما يــكاد المرء يجنى ثمارها •• حتى تنثال بين أصابعه وتروح » • قال صــديقى ذلك حين عاد ، وحين وجدنى صامتا صاح وكأنه تعاتبنى :

ـ السمك أكل وجه الغريق !

غمغمت : كلنا غرقى ! فسمعنى الرجل ، وما كنت أحب أن يسمعنى لأنه تأملنى بطريقة أزعجتنى ، وسألنى عما يبكينى •

كانت الدنيا قد تضببت بالفعل ، وغرقت الأشياء فى ملح عينى وحين أجهدت نفسى لأعرف ما يدمعنى حقا ، لم أجد ما يمكن حصره أو تحديده •

ـ انه يبكى !

غمغمت زوجته بذلك ، فصلصل ذهب رسغيها ، وازدادت الدنيا برودة •

ـ فكر فى موضوع التجارة •• ودعك من الشعر • اسمع كلامى •

قال صديقى ذلك وهو يدخل سيارته ، فهززت رأسى ، وشعرت بالحزن يخنقنى ، فكرت ان أقول ، ولم أستطع • وحينذاك ، مد أصابعه الباردة وصافحنى فسارعت بدفن يدى فى جيبى ، وشغلت نفسى بما يمكن أن تأتى به الأيام •

كان البحر قد هاج وتفجر بالزبد ، وحين استكان النورس للبرد والظلام •

ملأت كفى بالحصى ، وقذفت الطائر الخنوع •

— يا نورس •• يا عبد يا ذليل •• أنت من طين •• أنت من طين !

وحين هـاج النورس ملتاعا ، وملأ السـماء بالصـياح والعويل ، دفنت وجهى بين راحتى •

وشعرت بالسماء المكفهرة •

تنذر بالمطـر !!

الاسكندرية ١٩٨١ م

سبع وريقات شخصية جدا .. لعامل التحويلة المنتحر

● **الورقــة الأولى :**

ــ فى شبابى كنت أرقــا بطموحى وحاجــاتى .. أضجر الخمول والانتظار برهه على شيء تطلبه حواسى المتقده الواثبه ، وكنت أستبعد أن يأتى اليوم الذى تتعطل فيه هــذه الحواس : فيضمر البصر ، ويتلف السمع ، وتتقهقر كل الأجهزة الدورية والجنسية والعصبية .

ويصبح الانسان كطائرة تعطلت فوق السحاب !!

فحين ماتت أمى •• ورسبت عاما فى دراستى •• أدركت ان كل ما يبقينى فى هــذه المدينة قد تمزق ، فتركت دراستى الثانوية ، وعملت فى مهن كثيرة ، ما لبثت ان كرهتها •

ولأنى كنت أكثر رغبة وحركة من أقرانى ، فقد ضقت ذرعا بصخب المدينة ، وفساد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وحلمت بالصحراء والمنائر البعيدة حيث يتحرر الانسان من تقاليده ، وعقد طفولته ورباط عنقه ، وتغدو كل مشاكله هى العثور على قوت يومه !

فكان ان توظفت ــ كعــامل تحويلة ــ بخط الواحــات الصــحراوى •• حيث تنحصر كل مهــامى فى : تغيير الطريق لقطارات المنجنيز مرة •• كل أسبوع !

● **الورقــة الثانيــة :**

من قديم •• تحرقت شوقا لتغيير حياتى •• للخروج من حضن أمى ، وسطوة أبى قرأت كتبا لارسين لوبين ومزقتها •• بحثت عن خلاص لا أدرك كنهه حلمت بزوجة وســيارة •• بطفل ينادينى باسمى •• يشتمنى فاطارده ولا أدركه أبدا •• ينادينى : « بابا » • فيسقط قلبى !! تحشــه أمه الى حضنهــا فأسبقه اليه ونضحك •

حلمت كثيرا حتى تورمت عيناى وفاضت روحى • وها أنذا أجنى ثمار تسرعى واثيالى :

ــ تتغير الفصول والعصور ، وأنا عامل تحويلة !

تتغير الجبال والأجيال ، وأنا عامل تحويلة !

تنضج صدور البنات وأردافهن ، وأنا عامل تحويلة !!

عشرون عاما أتعامل فيها مع الصحراء والمأكولات المحفوظة ••

عشرون عاما مع الحديد والفوسفات والسراب والهضاب•

عشرون عاما لا أهمس ، ولا أصرخ •• ولا أضحك •• ولا أسمع اسمى !!

● **الورقة الثالثة :**

حين زارنى الصراف كعادته آخر الشهر •• سألنى عن زميلى فلم أجد جوابا •• عانقته فلم يندهش هذه المرة ، ولكنه ابتعد مشمئزا وسألنى لماذا لا أرتدى ثيابى ؟

أوصلت اليه احساسا خاصا برغبتى فى التحدث مع الآخرين فلم يفهمنى تطلع للحائط المرصع بالصور العارية وسألنى : أما زلت تأكل الأفيون ؟

قدمت له الشاى فرفضه متقززا •• ثم سلمنى مرتبى وهم بالقيـــام •

عرقلته واعتذرت ، فهب وقال اننى مجنون •

ضج القطار يستعجله فتجاوز الســـلم متعثرا ، وضغط نظـــارته •

أسرعت الى النافذة وسألته : ألا تعطى الحـــكومة بدل زواج ؟

توقف برهة ، وقال ألا يكفيك بدل الطبيعة ؟ !

قلت ـــ بأسى ـــ اننى أريد بدل انسان • واحتبس صوتى !

تأملنى فترة ليست بالقصـــيرة •• ثم تركنى للرمـــال •• والسراب •• ونفسى !!

● الورقـــة الرابعـــة :

فى كل يوم أغير من مكان مرقدى ومأكلى •• لكن العالم لا يتغير ••

أصرخ فى نفسى وأضرب جبهتى •• أصعد « البلوك » وأصرخ فى الصحراء •• فلا يرجع صدى •• اتقلب على سريرى البارد ، تتقلب معى الدنيا ، وشمس الغروب •

« مــاذا لو مت هنــا .. ؟ .. ماذا لو أكلتنى الذئاب أو لدغتنى الأفاعى . يا لها من نهاية » !

جريت الى المرآة ورأيت نفسى : أتيت بلا شعره بيضــاء فى رأسى ، فهل أغادر الصحراء بلا شعرة سوداء ؟

صرخت بأعلى صــوتى فخافت الثعــالب ، حطمت المرآة بقبضتى فحل الظلام وسال الدم لزجا ودافئا بين أصابعى .

● **الورقــة الخامسة :**

بعد يومين سفر جاءنى زميلى « بالمزاج » عانقته فجدد أعذاره !

أعطيته نقودى وأخذت تموين الشهر . تحدثت كثيرا حتى اتهمنى بالثرثرة .

سألته أن يبقى معى ــ هذه المرة ــ ليحدثنى عن مغامراته، وما يحدث بين الأزواج فى شهر العسل .

كلمنى باسهاب حتى دمعت عيناى ، وهاجت مشاعرى ، ذكرنى بألفاظ كنت قد نسيتها ، وتعبيرات ضاعت من قاموسى. واحاسيسى فرت منى لكنى عرفت حجم الكارثــة .. حجم ان تحول الرتابة بين قلبك وعقلك وان تفقدك الاحساس حتى بأهمية أصابعك !

قال انه سيلحق بزوجته قبل أن تلد ، فلم أصدقه هذه المرة •

قبضت على ذراعه ، وأمرته بالبقاء معى • تألم وحذرنى من العدوى •

سألته الى متى سيظل يخدعنى ، فحسدنى على عزوبيتى ، وحياتى الوادعة •

قال ان كل شيء فى المدينة يضج ويختنق •• المجارى • والسكن • والمواصلات •• و •• و •

قلت : والبنات ؟

أشار الى صلعتى وبياض شعرى ، ثم تركنى ومضى • جريت خلفه حتى سقطت حائرا خائرا أرقا ••

ضحك وقال : خدعتك الشيخوخة •

حدجته طويلا •• طويلا ••

وتركته يمضى !!

● **الورقة السادسة :**

« السيد رئيس هيئة السكك الحديدية •• بما أن •• حيث أن •• حرصا على •• لذلك •• تفضلوا بقبول التحية » •

صيغة استقالتى ، كتبتها أكثر من مرة ، دون أن أتلقى ردا .. فيارئيس الهيئة الحديدية .. يا رئيس القضبان .. والسراب .. ورئيسى .. خذ نقودكم الورقية الزائلة ، وأعطنى شبابى .. أعطنى خيالى !!

● **الورقـة السابعـة :**

فى المرات القليلة التى نزلت فيها الى العاصمة فتحت فمى لأشياء جمة أكلت خضارا طازجا واغتسلت بماء ساخن ، وفى المساء دخلت السينما فرأيت الناس ورأونى ! ..

ابتعت مذياعا وأعدادا قديمة من مجلة « العروسة » .

طـاردت الترام فطـاردتنى الكـلاب .. شـغلت نفسى بالاعلانات الوامضة . ورأيت البحر وعلى مقهى الميدان تفرست النســاء ، وتشربت البيرة واليانســون . وفى الفندق وددت لو أبكى .. وددت لو أقول .. لو أتكلم بطلاقة .. لو أعبر عن شيء واضح ومفهوم وحين عدت لخندقى حاولت أن أحدد أعدائى .. وأصدقائى .. أن أعرف كم خسائرى ومغانمى ، فصعدت الى سطح البلوك ولعنت الجميع .. جريت الى الجبل وأخرجت نقودى .. بكم بعت روحى وعمرى وبكارتى ؟ وماذا أفعل بهذه الأوراق المختومة .. ؟

وقد خسرت كل شيء ؟

فرشتها على الأرض ، وسألتنى عن مصـيرها ومصـيرى لومت فجأة ؟

ربى ألا تسمعنى قط ؟ .. اسمعنى مرة واحدة .. مرة قبل أن أموت !!

تعـليق :

وجد السيد/ عبد المجيـد عمران ــ الصراف العمومى بهيئة السكك الحديدية ــ هذه المذكرات مع بعض الكتابات الغامضة فى حضن المدعو (......) فى برج الكيلو ١٧٠ بخط الواحات الصحراوى وأكد الرجل انه ظل أسبوعا لا يرى النوم ، حين وجد المرحوم راقدا على ظهره ، منتفخا وجاحظ العينين ، وانه لم يجد بجوار الجثـة ــ كما ثبت فى التحقيـق فيما بعد ــ سوى حبل حول العنق ونقود ملكية وجمهورية ممزقة وتذروها رياح .. كما لاحظ ــ بخبرته ودقة ملاحظته ــ ان المرحوم لم يكن يعرف شيئا عن قيام الجمهورية ، اذ كان يكتب شكاواه الى « مصلحة السكك الحديدية » ويدبج خطاباته بعدة ألقاب لم تعد متداولة .

وأكد ــ فى التحقيق ــ انه تحدى الروتين وسافر ــ على حسابه الخاص ــ الى بلدة المرحوم فلم يجد له أقرباء قط .

فاضطر ــ طبقا لتقاليد وظيفته ــ ان يضع راتب المذكور بعاليه فى « الأمانات » .

أما فى التحقيق ، فقد كتب أمام اسم المدعو (.....) عامل التحويلة (الســـابق) بخط الواحـــات الصحراوى .. وبالخط الدامى كلمة :

ــ يحفظ !!

الشين ١٩٧١ م

حكاية أخيرة قبل النوم

بدأت الحكاية ..

حين كان المدعو « زرمبيح » ـ وهـذا هو كل ما يعرفه الناس عن اسمه ـ يعبر الميدان الممتلىء برجالات الأمن !

ولم يك باقيا على بلوغ الرصيف سوى خطوة واحدة . ، وينتهى الأمر ، حين صرخ فيه جندى المرور ـ الذى يعرف جميع الحروف التى بالجرائد ـ لاعنا سابا .

كان يمكن ان ينتهى الأمر عند هـذا الحد : ان يسـب شخص ، ويبتلعها آخر .

يحدث هذا فى كل مكان ، وفى أحسن العائلات .

ولكن ان ترد السبة بمثلهـا ، وعلى نفس الخد وبنفس السرعة ، فذا ما لا يحدث فى كل مكان ! لذلك كله ، كان لابد أن يسمع الناس لطمـة فسمعوا ، وسـمعوا رد « زرمبيح » الفورى ، وعلى نفس الخد تقريبا ، فتوقفوا برهة ، وتبادلوا النظرات والهمسات ، ثم تفرقوا كالعادة وانشغلوا بجلودهم .

كان الطبيعى ان يقبض الجندى على المتهم ، ويعرضه على الملازم الواقف بين زملائه فى صحن الميدان !

وكان من الطبيعى أيضـا ، ان ينكر المتهم — أو حتى يعتذر — ولكن غير الطبيعى ان يرد المتهم على لطمة الملازم ، بلطمة مماثلة ، كادت تسقط نظارته الجديدة ! ..

أو يرد على كل من أراد مجاملة الملازم الشاب ، وجبر خـاطره !

ولمـا كان مظهر المدعو « زرمبيح » يوحى بأنه من سكنة المقابر المعتوهين .. أعداء الأمن والسياحة ، فقد تصـور الناس ان فى الأمر خدعة ما .. وان المخرج سيظهر بعد قليل لينهى المشهد ، ويتصافح الجميع كالعادة !

بيد ان ذلك لم يحدث قط ، ففتحت أفواه ، وغمزت أعين، وانتهى المشهد حين جاء « البوكس » على غير العادة ، وعـاد الميدان لسابق عهده !

ولكن الذى لم يكن على عهده قط ، هو القسم القريب ..

فما كاد المـأمور يسمع الحكاية ـ قبل ديباجة النهاية ـ حتى هب واقفا ، وجامل زميله بصفعة فورية ، أحدثت دويا مميزا فى جنبات القسم ! ..

وليس فى ذلك ما يدهش !

ولكن المدهش ـ والمفـاجىء ـ هو ان يرد المتهم على المـأمور فورا ، وبلا أدنى تردد يمكن ان يسجلة « كمبيوتر » ، فكان لابد من مرور بعض الوقت ، ليتأكد المـأمور مما حدث بالضبط .

فهذا لا يحدث فى كل مكان .

ولكى يزداد يقينا ، أعاد المشهد ثانية ، فتأكد مما ظنه محالا .. وظنه الناس كذلك !

وحينئذ صرخ المـأمور مهتاجا ـ وهـذا حقه بطبيعة

الحال ــ فتجمع كل رجالات القسم واضطر المدعو « زرمبيح » أن يرد على الجميع •• حتى فقد وعيه وتوازنه •

وحتى هذه اللحظة ــ هذه اللحظة بالذات ــ كان يمكن ان ينتهى الأمر : مجرد معركة بسيطة بين مواطن حر ، ومواطنين أحرار ، عادة ما تنتهى بمحضر بسيط أو غرامة يمكن دفعهــا ولكن يبدو ان الأمر لم يكن بكل هذه البساطة البادية ! ••

فما كاد المدعو « زرمبيح » يستعيد وعيه ولياقته ، حتى قام فى المساجين ضربا وعضا ••

وبعد عدة أيام ، وجد نفسه مطالبا بالرد على صفعة وكيل النيابة فلم يتأخر ، ثم رئيس النيابة فالنائب العام ، وفى كل مرة يعود للسجن ، ومعه ملف فى حجم دلبل التليفون •

وقبل أن يرسـلوه للمدير •• حاولوا أن يتدبروا الأمر من جديد •• فلربما كانت المسألة مجرد ورطة سقط فيها الرجل، وانه يبحث عن فرصــة للتراجع ، فقدموا الشاى والبسكويت، وسألوه باحترام واضح ، ثم تطوع أحدهم : فأفهمه ان للعناد حدودا ، وان ما يحدث مع خفير لا يصح أن يحدث مع ضابط•• وما يحدث مع ضابط لا يصح أن يحدث مع مدير •• هنــاك

أبيض وأسـود .. جنة ونار ، ثواب وعقاب . وان كان قد تورط ، وعـالج الخطـأ بخطأين فمن الممـكن أن يتراجـع الآن ، و ..

رمى « زرمبيح » البسكويت فسحبوا الشاى ، وفتشوه فلم يجدوا سوى نظارة طبية محطمة ، وساعة يد توقفت عند العاشرة والربع !

وفيما عدا ذلك لم يجدوا ما يدل على أنه مواطن صالح ، فأعادوه للسجن من جديد .

وبعد عدة أيام قدموه لمدير الأمن ، ومعه ملف تحقيق فى حجم دائرة المعارف البريطانية فاغتاظ المدير على الفور ، وصفعه متحديا ــ ومتعشما والله ــ فرد الرجل على الصفعة بين دهشة الرتب والنياشين ، وفزع النسور والعصافير !!

حينذاك ، نشروا صورته فى الصحف الحكومية ــ بعد ان انتفخ وجهه ــ فلم يعرفه أحد ..

نشروه فى صحف المعارضة ، والصحف المدرسـية ، ثم حولوه لأمن الدولة ، وخلفـه عدة جنود يحملون ملفاتـه على أكتافهم بصعوبة لا تحدث فى كل مكان !

وفى المحكمة وجد نفسه مطالبا بالكلام فلم يفعل ، بل لم

يجد بدا من الرد على « زغدة » محاميه المجانى « بزغدة » مماثـلة ، حـين طالبـه الأخـير بضرورة الكـلام أو حتى الاشـارة .

فاذا كانت « خطوة واحدة » تأخرها ، هى سبب كل هذه الحكاية ، التى يمكن أن تقوده الى حبل المشنقة ، فمن الممكن أن تبرئه كلمة واحدة بنفس المفارقة !

ثم همس فى أذنه متسائلا ان كان يعرف شيئا عن سيزيف أو دون كيشوت ؟

ولمـا لم يجبه ، تكلم ببرود مجانى عن موكله ، فأكد انه لم يقصد اهانة النظـام ، أو تكدير الأمن المستتب لأنه رجل مستتب ، بدفع ضرائب الخلق والخـالق ، وينام مبكرا كمـا يفعل كل الناس .

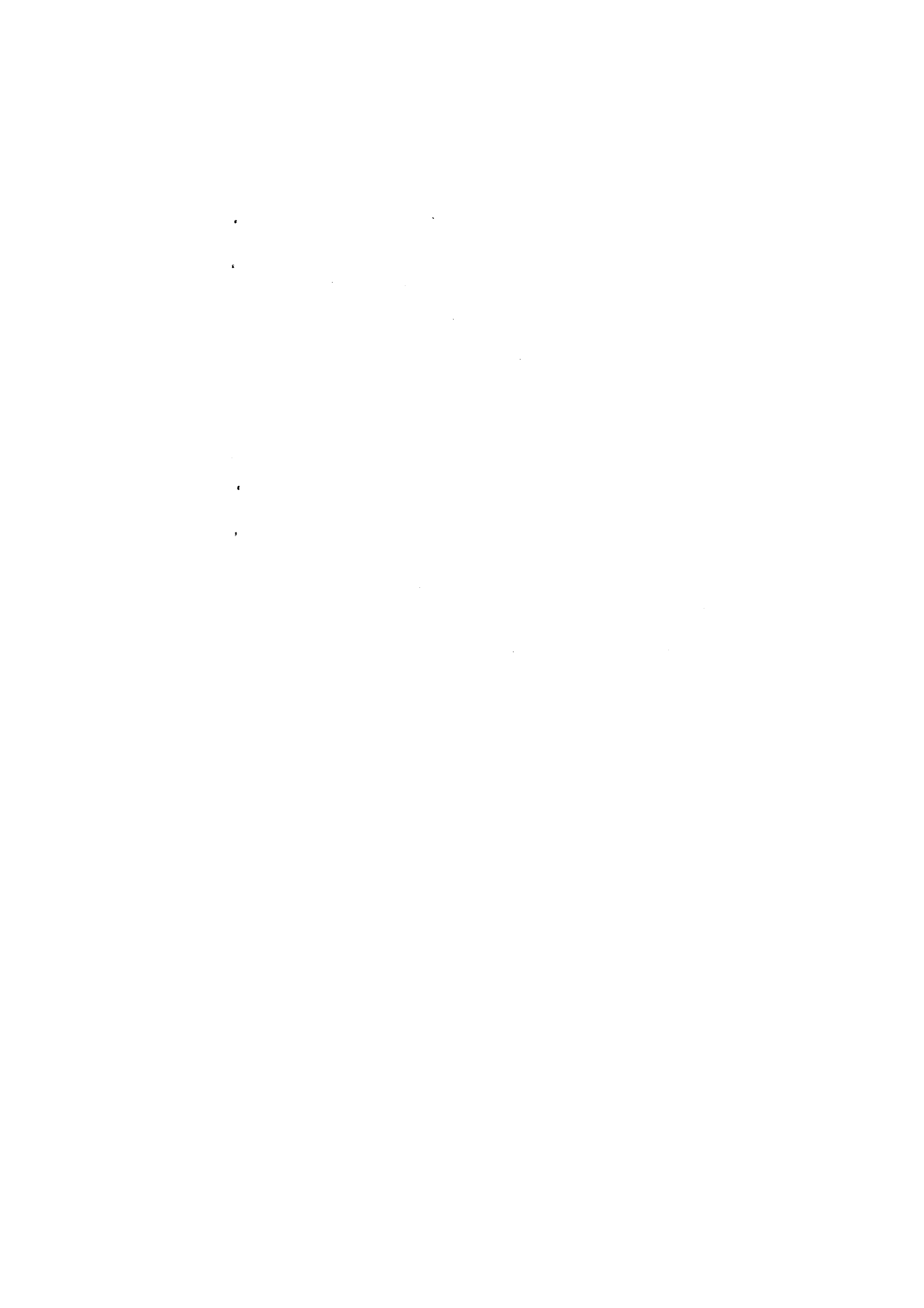
فأمر القاضى بعرضه على الأمراض العقلية ، وانهمك فى حل الكلمات المتقاطعة !

وحين أفـادت الأخيرة بامتلاكه لقواه العقلية ، تضـايق القاضى وأمره بالتخلى عن صمته وعناده ، ثم حوله للقـاضى الأعلى .. فالأعلى .. فالأعلى .. الذى ما أن ضاق به وصفعه ،

حتى سحب المتهم المطرقة الخشبية ، ورد عليه بجرأة لا تحدث حتى فى السينما الأمريكية !

وعندئذ حولوا أوراقه للمفتى فى قطـار خصص لهـذا الغرض ، ورآه الناس برمقهم من خلف نافذة القطار المسلح يوشك أن يقول ، ويجاهد .. كى يخفى ضحكته !!

القـاهرة ١٩٨٨ م



- وحيــدى
- زووم
- البلدوزر
- القاتل .. القتيل

وحيـــدى

كان يتواثب كالعصافير الملونة ..

يداعب الزهور ويطارد الفراشات الشذى .

ينادينى : « بابا » فيغوص قلبى فى الندى

يرشنى بالمـــاء ويجرى ، فاطارده ضاحكا حتى يغشـــانى الضباب .

أخاف أن أحضنه فيختنق .

يطلب هذه اليمامة فألاحقها حتى أخور على الأرض .

يضحك وأسعل .. فيلطم البحر بعضه البعض .

« من رحم أمه نزعنـاه ودفناها •• من كبدى تشـكل واستقام » •

للمرة المليون أتأمل اسمه المرسوم فى بطاقتى •• وأطيل •

الفارس الوحيد هو •• والعمر قصير !!

أتخيله عريسا بين رفقائه فيطير قلبى ••

أنزوى حتى لا يخجـل منى •• فينـادينى •• ويقدمنى للجميع ••

أذوب فى خجلى وفى فرحى •

يوقظنى : بـ •• « بابا » فتزداد الدنيا طلاوة •

أضمه الى صدرى فيحمشنى ويقطع زر القميص ••

أعابثه وأقول ما أقول ••

فيعض كفى ويشد شاربى ••

أصرخ ويضحك •

ينـام فأتنـاوم •

ولا نعرف من منا سيقوم فى الصباح

ليواصل الحياة •• من جديد !!

القـاهرة ١٩٨٧ م

زووم

كان يجلس بمقهى الميدان .

يدخن البايب ، ويشرب الشاى الخفيف .

وبين الحين والحين يتأمل حذاءه اللامع المدبب ، ويؤكد لنفسه انه سعيد !

كان قد حل الكلمات المتقاطعة ، وقرأ كل الأبراج والتعازى ثم عاد وتأمل حذاءه اللامع ، وتأكد انه سعيد .

حينذاك نظر الى السـماء فوجدها خاليـة .. نظر الى الأرض ، فوجدها ممتلئة بالناس والدواب — « صور وخيالات

نصنعها ونصدقها » ــ قرأ اخطار المعاش مجددا وراح يتأمل الأختام والتوقيعات لبرهة قصيرة • ثم فكر ان كان من الممكن أن يقوم الآن ، أم لا يقوم على الاطلاق ؟ ••

حين تساوت الكفتان ، طلب « قهوة مضبوطة » وقـام ليجلس تحت الشمس • جـاء بائع الجرائـد ، وبائـع اللوز والسودانى ، فنادى على ماسح الأحذية ، واستكان لحـركة الفرشاة المتواترة الرطبة ، وراح يرنو بخدر خفيف للاعانات الوامضة عند الميدان • فرأى الانسان يجرى ويمشى ، ورآه يزحف ويطير •• رآه يضحك ويبكى ، ورآه يحمل فى تابوت ، ويهدهد على ثدى !

فكر أن يملأ ساعته فوجدها ممتلئة •• قام وقعد •• ثم قال أنه سعيد • تذكر شيئا فهب واقفا •• وفى لهجة آمرة قاطعه، طلب من المـاسح أن يكتفى بهذا لأنه تذكر ما هو أهم •• .

وحين ضم حاجاته الى صدره ، وخرج الى الشارع مسرعا، رأى الناس والسيارات والدواب ، ورأى السحاب والغروب ، فقال : لا شيء يهم !!

فكر أن يعود للبيت ، فهناك يستطيع أن يتمدد على سريره البارد ، ويتأمل السقف القريب ، وهنـاك يستطيع أن يتذكر زوجته ، ويتأمل صورتها البعيدة •• وهناك يستطيع أن يتدبر

الأمور ، ويستحضر الأصـدقاء القدامى ، ويفكر كيف سيمضى العمر •• وتنقضى الأيام ؟

لكن « الجرسون » جاء بالقهوة ، فلم يجدها « مضبوطة » كما يجب ، وان شيئا فى هـذا العـالم غير مضبوط ، ويتعين عمله الآن !

فتح « الجورنال » مجددا فقرأ عدة أسطر مضببة ، نادى على « الجرسون » وأكد ان القهوة لا تطـاق ، وان المـاء مر ، فسحبها من أمامه ، ووعد بغيرها •

قال الراديو :

« لبست ثوب العيش •• لم أستشر

وحرت فيه بين شتى الفـكر »

نظر الى ساعته ، وفكر أن يقوم :

— « وسوف أنضو الثوب عنى ولم

أدرك لمـاذا جئت •• أين المفـر »

طلب من « الجرسون » ان يغلق الراديو فلم يستجب ، فقام ، وجلس تحت الشمس الغاربة ، وقال : انه سعيد !

جاء الجرسون بالمطلوب ، وبحث عنه حتى وجده هناك ..
يشاهد الغروب :

ــ « ان تفصــل القطرة من بحرهــا
ففــى مــداه منتهــى أمرهـــا
تقـــاربت يــارب ما بيننـــــا
مسافــة البعــد على قدرهــا »

قام وأغلق الراديو فلم يعترض أحد . عاد للظل ، وراجع الكلمات المتقاطعة مراجعــة أخيرة ، ثم تذوق القهوة فوجدها ما تزال مرة ، فهب واقفا ، وقرر أن يمضى .. تأمل الناس فى صراعهم وتدافعهم . دفع للجرسون وترك جريدته .

وقبل أن يحل الظلام .

وبحركة مباغتة نظر نحو شرفتى العالية ، فتراجعت بمقعدى المتحرك ، وقد ملأنى الخجل وأعمانى الجمود والشلل .

وقبل أن أدخل غرفتى الباردة ، رأيته يستدير بعنت واضح، ويخوض عتمة المساء الكابية ، قبل أن يسقط مطر !!

القــاهرة ١٩٨٤ م

البلدوزر

فى عز حر الظهيرة ، وفى منتصف جزيرة الرمال بالصالحية وقف « صفوان السوهاجى » بثيابه المرتقه ، وقدميه العاريتين على تبة رملية وصاح فى الزملاء :

ــ وبعدين يا رجالة ؟ نسكت على كدة ؟

سكن الجميع برهة ثم حدث لغط ، وهمهمة ، فصاح من جديد :

ــ اتكلموا .. ساكتين ليه .. عاجبكم اللى بيحصل ده ؟

ثارت همهمة جديدة تمزقت خلالها عشرات الجمل وسقطت بعض الحكم ، حتى ظهر من بينهم من يغمغم :

ــ ونعمل ايه بس يا صفوان •• حنحارب الأكابر يعنى•• ولا نحارب الأكابر ؟

صاح صفوان على الفور :

ــ ونحارب الشيطان نفسه لو حاربنا •

ثم رمى بنظرة احتقار وهمهم :

ــ يا ريتك ما نطقت يا حسان •

ثم أردف بمرارة وهو يهبط التبة :

ــ روح يا شيخ احلق شنبك •• روح !!

ــ وماتحلقوش أنت ليه يا صفوان ؟ !

فالتفت الناس لمصدر الصوت •• وذاد لغطهم ••

كان « توفيق المنياوى » مقاول الأنفار الصعيدى ، بوجهه الهضيم ، وشاربه الذى لم يقف عليه الصقر قط :

ــ واحلقه ليه يا ريس منياوى ؟

ــ بتحرض العمال يا صفوان •• انت كد الحكومة ؟

قال المينياوى ذلك بتهكم كاد يشعل النار ، وهو يجلس على الأرض ويخرج صندوق دخانه الصفيحى القديم :

ـ احنا بنطالب بحقوقنا يا ريس منياوى .

قال صفوان ذلك بحرارة لم تحرك ثلج المينياوى . الذى راح يلف سيجارتـه ويمعن فى برمهـا واستقامتهـا ، لتبدو كالصـاروخ !

ـ انت كد الأكابر يا صفوان .. ضد التقدم ؟

ـ بقولك ايه يا ريس مينياوى متغلطنيش ..

أنا مش ضد حد .. أنا ضد اللى ياكل حقى .. وحق ولادى ؟

ـ ومين كل حقك يا فصيح .. راجل شـغلك واداك أجرك .. جاب مكن أو مجبش مالك انته ؟ .. وصى ؟

ومن بعيد لمح صفوان رجالا فى ملابس موحدة ، وهم ينزلون « البلدوزر » ومعـدات النقل بعناية فائقـة ، فكبح جماحه ، وصاح بتحد : حنخربها ..

وكان الراديو يذيع « أدهم الشرقـاوى » وكيف هـدم الجدران ، وكلمهم بكل لسان ، حين صاح صفوان مؤكدا :

ـ آ .. حنكسرها .. ونولع فيها كمان !

ـ طب ابقى قرب له يا صفوان يابن فتحية ..

قال المينياوى ذلك بتحد واضـح .. كاد يفجر أزمـة جديدة ..

بيد ان صوت « البلدوزر » الراعد أخرس الجميع ، وملأ السماء بالدخان والتراب .

وكان لابد للأعناق أن تلتوى فألتوت ، وأن تفغر الأفواه ففغرت والتصقت العيون بالجنازير الحديدية ، والمغرفة التى يمكن أن تهدم الدنيا فى غمضة عين !!

وكاد لابد أن يراقبه العمال ، وهو يعمل فى ثقة من يملك مليون فدان !

بينما الشمس الحارقة تخجل من حديده اللامع ، وترتد فى العيون فتدمعها .

ـ سبحان الله .. بقى حتة حديدة زى دى تقطع عيشنا ؟

غمغم علوان بذلك فلم يسمعه أحد .

أسرع أحدهم الى « البلدوزر » بحذر كى يلمسه ، لكنه عاد مسرعا .

ـ تجرأ آخر وكاد يلمسه ، لكن « البلدوزر » زمجر ، ونفث فى وجهه الدخان فعاد لاهثا ، وقلا ملأ الرعب قلبه !

حتى صفوان نفســه لم يستطيع منع نفســه من رصـد ما يجرى ، فهذه هى أول مرة تظهر فى الجزيرة مثل هذه الأشياء الغريبة حتى مقــاول الأنفار نفســه لم يستطع المقاومة ، فترك السيجارة تحرق أصابعه ، وشارك الجسوع فضولهم ، متمنيا أن يملك مثله !

وكانت العربات قد غيرت مسارها ــ لأول مرة ــ وتكومت هناك عند البلدوزر ، الذى ما أن يغرف غرفتــين حتى تحبل السيارة وتكاد تزحف على بطنها .

وقبل أن تغيب الشمس جاء المقاول الكبير ، وتفقد معداته دون أن ينزل غليونه أو يفتح زجاج سيارته . وقبل أن يأمر سائقه بأصبعه ، فكر صفوان أن يشكو اليه .. وان يرتمى أمامه « ان لزم الأمر » : ونروح فين يا بيه .. داحنا بناكل ونعيش من الرمله اللى تحت رجليك .. أحنا ...

لكن البيك كان قد مضى .. ولم يترك سوى الدخان .

اذن فالمينياوى على حق ، ولم يكن يكذب أو يهدد حين قعد معهم بالأمس ، ونصحهم بالعــودة لأرضــهم مهمــا كانت مساحتها .. بيد انه لم يعجبهم حين ركن السيجارة الأجنبيــة فى ركن فمه ، وأكد وهو يطرقع أصابع قدمه ان الدنيــا تغيرت وان عصر « الغلقان » قد انتهى وولى !!

ـ كيف ينتهى •• عتمشى الدنيا على مزاجك ولا ايه ؟

فلم يلتفت المينياوى ، وفى كلمتين أكد انه قد صفى حسابه ، واختار أن يعمل مع المقاول الجديد •

واشمعنى أنت يا ريس منياوى ؟

ـ لأنى متعلم يابن فتحية •• بأعرف أفك الخط ، تعرف تفكه ؟

ـ لا •

ـ طب خلاص •• متورناش سنانك يا شاطر •

ـ طب متعلمنا يا ريس منياوى ••

صاح أحدهم فأكد منياوى يائسا :

ـ لسه حعلمكم ؟ •• ياخى دهده !!

وحين هدأ •• تكلم بلكنة جديدة ، وتكلم عن شيء اسمه « العطاء » وكيف رسى ذلك « العطاء » على المقاول الكبير وزميله الأجنبى ، فلم يفهموا شيئا مما قاله المينياوى ، لكنهم صدقوه •• لأنه يعرف جميع الحروف التى بالجرائد ويعرف أرقام أى سيارة كانت ، ويستطيع أن يكتب جميع الحروف •

ـ يا نهار أبيض •• هما الانجليز ورانا •• ورانا ؟؟

غمغم صفوان بذلك وهو لا يصدق ما يجرى حوله • ثم أردف بمرارة :

ـ والله واشتروك يا منياوى !

فسمعه المينياوى ، ولكنه لم يعقب ، ولم يلتفت اليه •• وحين انهى سيجارته ألقاها جانبا •• ثم قام متكاسلا •• وصافح الجميع بيد ناعمة وباردة ـ ثم أولاهم ظهره •

وكان يمـــكن أن ينتهى الأمر عند هـــذا الحد ، بيد أن الليل طال وحلكت ظلمته بصورة لم تعهدها الجزيرة •

ومن خلف الأغطية الخشنة ، « والأغراض » التى جهزت للرحيل ، شعر البعض بضيق « صفوان » وتأرقه ، لكن أحدهم لم يشعر به وهو يتحسس طريقه الى « البلدوزر » الذى ربض هناك كبقرة ميتة •

ودون أن يدرى ما يفعل صعد الى البلدوزر كما يصعد ابن شداد على جواده الجامع ••

وكان الجو عاصفا •• والظلام حالكا ، حين بدأ الضربة الأولى • وثب صفوان على « البلدوزر » يركل « الدركسيون » ويلطم « الكونتاك » ويعض « الفتيس » ويتلقى الضربـات التى تطيش منه ، والتى تطيش اليه فقد تلقى صفوان ركلة فى بطنه ، ولكمه فى رأسه دون أن يدرى ان كان « البلدوزر »

هو الذى يضربه ، أم هو الذى يضرب نفسه كل ما يدريه انه ظل يمزق الأسلاك ، ويعض المفاتيح •• حتى « دار » البلدوزر، ومشى فى الظلام كفيل جريح يبحث عن قاتله !

وبدافع قاهر من حب الحياة •• وبلا أدنى ترتيب عقلى أو قصـــدى أو منطقى نزل صفوان وجرى متعثرا فى الظلام • وهو يرى « البدورز » يطارده ، ويرهب الظلام بشرره ووعيده حاول أن يوقفه ، وحاول أن يصرخ •• وحاول أن يضـــع أمامه الحواجز لكن « البلدوزر » كان يتجـــاوز كل ما يوضع أمامه ، ويشـــق طريقـــه باصرار خرافى نحو الأكواخ الصفيحيـــة فى حضن التل •

وقبل أن يصرخ صفوان صرخته الأخيرة •• كان البلدوزر قد فرم عشته ، وسواها بالأرض •

ثم واصل زحفه المجنون حتى تجاوز الأكواخ كلها •• والصرخات كلها •• ليسكن أسفل التل محترقا •

جنيفة ــ القطامية ١٩٧١ م

القاتل .. القتيل

تسللت الى هناك كالذئب الجائع ..

زحفت على بطنى حتى تفصد الدم .. وفوقى السماء تبرق .. وترسل الثلوج والشرر .

ـ لابد ان أقتله !

ذلك قرار لا يمكن حله ، أو مناقشته ، أو حتى مراجعته!

سأقتله حتى ولو .. سقطت من بعده الدنيا ، وتحطمت شموس الخليقة !

سأسحقه كسيجارة كريهة ولا تطاق ، كحشرة قميئة ولا تساوى جهد سحقها ..

سأقتله لأنه يسمم حياتى ، ويتمدد فى داخلى كجدار من الرصاص المسموم سأقف على أعلى صخرة ، وأصرخ فيه :

ــ يوم جئت تسمم الهواء ، وماتت الظلال .. لا تقل ادفننى هنا .. فلن أدفنك فى مكان واحد !!

ثم أقترب قليلا ، وأصرخ منفطر القلب :

ــ ها أنذا أقف أمامك عاريا كما ولدت .. ومعنا خنجر واحد .

وأقترب حتى أراه خلف الأكمة البعيدة ، والسيل يغرقنى والوحل يضنينى .

ــ لماذا تطاردنى فى صحوى وفى نومى .. تزاحمنى فى مرآتى ، وبطاقتى ، وغرفتى ؟

وحين يستفيق أثب كالفهد الضارى ، وأحتمى بالشجرة العجوز :

ــ أيها الجبان الذى لا يعرف قدر نفسه .. قم وواجهنى .

ــ .... !!

ثم أتقدم خطوتين ناشبا أظافرى فى اللحاء الهش :

ــ أخرج أيها المقوت •• أو ارفع يديك كفأر عجوز ••

وخطوتين أخرتين :

ــ هــل تريد ان أقتــل لك نفسى ؟ •• اقتلنى وخلص نفسك •• أو دعنى أخلص نفسى منك •

ــ •••••••• !!

ثم تقدمت عدة خطوات ، حتى بات ما بينى وبينه خطوتان، وصحت دامعا وقد بح صوتى :

ــ أيها القاتل القتيل •• ان الســماء تمطر لأنها تخجل منك •• أخرج وواجهنى فلن أنتظر بعد الآن !

ثم تقدمت الخطوتين قازفا بخنجرى فى كبد الظلام ••

وأرتميت على الأرض ••

كابتا دمعى !!

سان جرمانو ــ ايطاليا ١٩٧٦ م

- البحث عن هوية
- فى ذلك الصباح
- تيــك .. تــك



البحث عن هويـة

كان الزجاج مغبرا ، ومضببا .. حين رأيته على الضفة الأخرى لنهر الشارع يضـع مذياعا خشبيا على أذنه ، ويغنى بصوت عال : أغنية مناقضة للأغنية المذاعة . كان الزجـاج مغبرا ...

لكنى رأيته يقترب من المقهى ، ويكاد يلامس الزجاج .. وقبل أن أستنطق ملامحه رأيته يعود أدراجه حيث المصـباح المتدلى بكسل وتراخ على شاطىء البحر .

ــ مجنـون !

علق الجرسون بذلك فلم يحفل به أحد •

كان المطر ما يزال يتساقط برتابة على المحيط الضوئى لمصباح الكورنيش •• ويتقاطر على زجاج المقهى فيضببه ، ويتسلل الى أرنبة أنفى •• وكوب الشاى البارد ، وعلبة السجائر الفارغة ومسوغات التعيين ، وجريدة الشهر الماضى و •• ـ أى خدمة يا أستاذ ؟

هتف الجرسون بذلك وهو يحمل الصينية ، ويهز النقود المعدنية فى جيب سترته • طلبت شايا فسمعته يعتذر •• طلبت ماء فأحضره على مضض ، وأغلق الراديو قبل أن يسهب المذيع فى تفاصيل النشرة •

ـ ثلاثون سنة ونحن نسمع نفس الكلام ! ••

علق الجرسون بذلك فلم يحفل صاحب المقهى ، وواصل فرش « بوناته » على منصته بفتور ورتابة •

عندئذ لفت الرجل المخبول الأنظار بصوته العالى ، فأغلق الجرسون باب المقهى الزجاجى وانهمك فى تجميع الكراسى •

« هذه اذن هى الاسكندرية ••

باردة وغافية •••

تنام بين الوحل والضباب •

وتستعيد سكرة العافية •

ــ أى خدمة يا أستاذ ؟

هتف الجرسون بذلك وهو يحمل المقعد المقابل لمنضدتى•• ويقلبه على المقاعد البعيدة ••

كان المطر ما يزال ينهمر ، حين دفعت الريح باب المقهى ، فوضح هدير البحر وجلبة الأمواج والبروق •

وبين الفينة والأخرى •• تمر طيور الليل الملتاعة ، وتصيح برجاء غائر حزين •• فلا يرجع صدى •

« ها أنذا يا فلذة المقدونى ••• وقد بعتك نفسى

عاريا آتيتك ، وعاريا أوليك ظهرى فشدى اللجام وترفقى

بساذج مفتون بالثديين » •

ــ من فضلك يا أستاذ •

وسحب الكوب ، والمنضدة •

كانت السماء قد واصلت قصفها ، وتصادمت فأنار قبسها تمثال سعد زغلول :

« فلأقف هنا ••

ولأرى أنا أيضا الطبيعة مليا

شاطىء بحر رائع ، أزرق أصفر

فى صباح سماؤه صافية

كل شىء جميل مفعم بالضياء .

فلأقف هنا ..

ولأخدع نفسى بأنى أرى هذه حقا .. ولا أرى خيالاتى ومتعة وهمية » (1) .

ــ أستاذ ... يا أستاذ ... الحساب من فضلك .

ــ تش ... تشــ .... ش !

قال البحر ذلك وهو يقاوم الصمت والظلمة .. ولكن الشوارع المتصــابية راودته عن نفســه ، ثم بصقت فى مجاريها ونامــت !

ــ تش .. تشــ .... ش ..

« يا ابنة الرومان يا مغرورة .. يا صخرة ويا سنارة

مكحولة عيناك بالقلوع ــ مجهولة الاشارة » ..

ــ أستاذ .. أستاذ من فضلك .. سنغلق المحل ..

---

(1) قسطنطين ،ب، كافافيس .

ـ تـش !!

ـ لا نريد نقودا ••• مع السلامة !

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

« ها أنذا يا ابنة الأتراك والبطالمـة

أراك ترقدين بين البرد والظلمة

وأولادك التعساء

يمضغون ثدييك الفارغين ويرتجفون ••

باعة لب وحواة ••

شـعراء وجوعى

صـناع وقوادون ••

وأنت تنامين بتاجك المستعار

ولا تمنحين سوى البسمات

ـ تش ••• تش

كان البرد لا يطـاق

حين حملني الجرسون عنوة وأغلق الباب دوني •• كان البرد لا يطـاق ، بينمـا تمثـال الزعيم يقف غاضـبا آسـفا

متوعدا •• نفس الطربوش •• نفس المعطف •• نفس النظرة النارية التى حالت وقالت :

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

ـ يا زعيم ••• يا واهب الخبز والبارود •• •أنظر تحت قدميك مرة لترى أحفادك •

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

ـ صامت أنت كرمسيس ـ تش ـ ساخط •• معتال ••
ـ تش ـ تصيح فيمن حولك :

ـ لقد فعلت ما على ••

وبعد عدة ساعات تقول : انظروا •• ثم ـ ها ها •• ها •• هاى ـ تشير الى البحر •

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

ـ يا زعيم ••• يا جدى الطبيب ••• احمنى من الثلج والبروق ••

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

ـ يا جدى الغريب •• ابحث معى عن هويتى يا جدى الطيب ••

ـ تش ••• تشـ ••• ش ••

ـ يا جدى العجوز •• يا صنم •• انقذنى من حذائك الثقيـل ••

ـ تش •••• تش •• تش

ـ أنت ••• أنت يا فتى

ـ من أنا يا جدى ؟

ـ نعم أنت •• لمـاذا تقف تحت قدمى ؟

ـ ساعدنى يا جدى الطيب •• أنا ••-

ـ اخرس يا آخر الأجيال يا مأفون •• ألا ترى اصبعى ؟

ـ يشير الى البحر يا جدى ••• الى المجهول ••

ـ لا تناقشنى •• الاستقلال التام أو الموت الزؤام •

ـ محكمة •• ها •• ها •• هاى ••

أوليته ظهرى فشعرت بالبرد والضياع ••

كان الظلام حالكا والطوار مبتلا ، وحين تتصـادم السحب يصطخب البحر ويقذف بأمواجه الغاضبة الى نهاية الشارع •

ـ جدى ••• جد ••• ى •• دى •• دى •• دى •

ناديت بأعلى صوتى فأصطخب البحر وهاج الذبد بينما السيارات القليلة المضببة تمضى بتكاسـل ورتابة .. فتحدث صوتا يشبه صوت السمك حين يقلى ..

ـ تش .. تشـ ... ش ..

نادانى فأسرعت متعسرا حافى القدمين ، نزل عن قاعدته ووضع يده على كتفى ..

ـ أيها البرجوازى الصغير ... متى تستطيع أن تقف على قدميك ؟

ـ « جدى » ... صحت بفرح طفولى فأخذنى فى حضنه وجلسنا على مقعد بالحديقة . شكوت عثرتى واغترابى ... فعرك أذنى وضحك مهونا ..

ـ التـاريخ لا يعود للـوراء يابنى .... والشـعوب لايحررها شخص واحد .

ـ تش .. تش .

وكان المطر ما يزال يسقط فى الظـلام ... حين تغيرت ملامح جدى ، فاستحالت أسنانه اللامعة الى أنيـاب دامية ، وقدماه الرقيقتان الى حافرين غليظين .. وشـيئا فشـيئا .. وجدتنى فى حضـن ذلك المعتوه ، ومذياعه الخشبى القبيح ،

فدفعته مرتعبا وفزعت كالملدوغ .. استدار ، ووقف على منصة جدى .. وبكل بلادة العالم .. رفع جلبابه وبال .

جريت نحو المـــاء هائما ... متعثرا ... هرب السمك ، وتفجر البحر ..

نزعت شومة باردة تشبه الشاكوش ورجعت داميا متعثرا كثور أسبانى هائج .

ــ تش ... تشـــ ... ش ..

وحين رفعتها ــ بكل هياج الدنيـــا ، وشمشونية الجن الأزرق ــ لم أجد ما يمكن تحطيمه !!

الاسكندرية ١٩٨١ م

فى ذلك الصباح

فى ذلك الصباح ، اضطر الأسطى « عبده الطرابيشى » ان يصعد « لسندرة » المحل لأول مرة ، بعد أن بح صوته وجف حلقه من مناداتى .

ولابد انه سكب ماء باردا على وجهى ، لأنى قمت مفزوعا — من فراشى الأرضى — لأجده مستندا على الحائط البارد ، وقد ضاقت أنفاسه ، وعاودته أزمات الربو .

فى ذلك الصباح .. وقبل ان أقول له : خير يا حاج .

ارتبك الرجل ، وأخبرنى — متحرجا — بأنه اذعن أخيرا ، وباع المحل ! ..

وعلى — من الآن — أن أبحث عن عمل آخر أقتات منه ، غير صناعة الطرابيش !

وفى ذلك الصباح .. وقبل أن أفتح فمى لأطلب تفاصيل آخر ، وضع فى يدى عدة جنيهات — دافئة ومهروسه — ثم أولانى ظهره .

وبعد عدة خطوات — عجوزات ومتعسرات — استدار بعنت وتفرسنى بعينيه الكليلتين ، ووجهه الأسمر الطيب ، وابتسم ابتسامة خيل الى انها ستكون آخر ابتساماته !

فى ذلك الصباح .. لاح المكان غريبا ومفجعا ، وكأننى أراه لأول مرة . فعلى مدى البصر .. كانت الجرافات تزمجر فى غضب كاسح ، وتنفث دخانها فى وعيد قاطع ، وعلى متنها يضجع أناس حمر الوجوه ، يرتدون ثيابا غريبة ويتكلمون كلاما لا يفهمه أحد .

ولما كانت الشمس قد أشرقت منذ قليل ، فقد بدت لافته المحل مسحوقه بشكل مهين ، وشجرة اللبلاب لا وجود لظلها .

ولم أجد من أسأله عما يحدث .

ولكن أحدهم صاح وكأنه يركلنى : هو تيل .. هو تيل . فبعدت على الفور وسمعت من ينذر الجميع — لآخر مرة — باخلاء المكان فورا .

ورأيت الجرافات تقترب باصرار من محل الطرابيش والعاديات والأوسمة فأشرت ان يبعدوا ، وبحثت ـ وسط الزحام ـ عن عم عبده فلم أجده .. بحثت عن فتحى الحلاق ، سعيد الكنفانى ، محمود الحداد ، ورياض الحرايرى ، وبحثت عن سعاد !

ـ أمامكم خمس دقائق ... واحد ...

صرخت فيهم فلم يفهمونى ، ووضعوا لافتة مكتوبة بلغة تشبه أرجل العصافير ، وأعمدة النوافذ .. وعنوا بالأشجار والأزهار الصناعية .

وقبل ان أقترب ممعنا بصرى صاح من جديد : Hotel .. Hotel

فأشرت مستمهلا حتى آخذ حاجاتى ففهموا ، وأشاروا ان أسرع فأسرعت وكونت حاجاتى باضطراب أنسانى بعضها .

فى ذلك الصباح ، قررت ان أدافع عما أحب وأعرف ، لكن الجرافة اللعينة غرست مخالبها الفولاذية فى لحم الدكان فادمته ، وحين مددت يدى لآخذ طربوشى ثقبته الجرافة وسحقته فى الأرض .

فنزلت من سندرتى الدافئة ، دون أن أسمع زقزقة عصافير أو لوعة كروان بحثت عن أى شخص أعرفه أو يعرفنى فلم

أجد •• أى شخص يكون قد رآنى أو رأيته باع لى أو اشترى منى ، حيانى أو حييته ، صادقنى أو عادانى ••

حينذاك أوليت المكان ظهرى ، ورأيت الرماد يملأ الدنيا•• وشعرت بالبرد يهزمنى ويغزونى ، بينما الناس تسرع الخطى — فى ذلك الصباح الكئيب — نحو عربات الفول !!

القــاهرة ١٩٨٤ م

تيـك .. تـك(*)

ـ تيك .. تك .. تيك .. تك !!

ـ بيب .. بيب .. ب .. يب !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ ضهرك يا أفندى .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

(*)لهذه القصة « قصة » وهى اننى كنت احمل « كاسيت جيب » صغير فتح بطريق الخطأ فى أحد شوارع الاسكندرية فسجل اشتاتا من الأفكار والأصوات فكانت هذه القصة . فعذرا لمن يعترض على مثل هـذا الايضاح . وعذرا ثانيـا ان أشرت الى ان « تيك .. تك » صوت « ميقاتى قنبلة » .

— هنا القاهرة . سيداتى وسادتى نحييكم ونقدم لكم ..

— تيك .. تك . تيك .. تك .

— سندوتش فول يا عم عبده ..

— تيك .. تك . تيك .. تك .

— محلاها عيشة الفلاح .. مطمن قلبه مرتاح يتـ

— تيك .. تك . تيك .. تك .

— مش دا الراجل الى كان فى المظاهرة امبارح ؟

— تيك .. تك . تيك .. تك .

— أعلنت اشارات ضبط الوقت الرابعة الا ..

— تيك .. تك . تيك .. تك .

— طول عمرنا بنقول أزمة نشر .. وأزمة الأدب الشاب . ايه اللى عملناه ؟ المشكلة الحقيقية ان فيه أزمة أشمل وأعم .. أزمة الانسان !!

— جرسون .. يا جرسون .

— بلد من ٣ حروف أولهـا « ميم » وآخرها « ر » . « ميه » .. « ميم » .. « ميم » مش عارفها .

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ الشيوعيين يا سيد هما السبب . أيوه . كل منمسك واحد يطلع لنا عشرة .. فين الايمان .. فين الـ ..

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ شفت يا عم الأهلى عمل ايه ؟ .. أربعة صفر وشرفك .

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ عملت لنا ايه الثورة .. تقدر تقوللى ؟ .

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ فيك عشرة كوتشينه فى البلكونه .. فيك ..

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ هما عايزين يوصلونا لكده .. ونجحوا .

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ لاعبنى عشرة انما برها .. ا .. ا .. ا .. ن .

ـــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـــ يا صلاة النبى . يا أرض احرصى ما عليكى .. بصلنا يا جميل . واحنا بنوع الـ ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ اللى مش عجباه البلد يهاجر .. آه .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ شفت الطالب اللى راح الجامعة متكحل وراكب جمل ؟

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ يا سلام . فين أيام الجوارى .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ مرزوق أفندى .. اديله حاجه .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ هو دا المنطق والا مش هو ؟ يا متعلمه يا بتاعة الـ ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ تاريخ ايه يا عم .. حنفضل نقول التاريخ .. التاريخ . لحد ما نلاقيش اللقمه !!

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ مفيش حاجه اسمها عداله يا شاطر .. يا تحرق .. يا تنحرق !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ .. زى ما بقولك كده .. كل ماروح له يقوللى فوت بكره .. فوت بكره .. غمزته بالمعلوم قام زى الونش !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ متضيعش وقتنا يا سيد .. اللى مش معانا يبقى ضدنا فتح عينك تاكل ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ حكم العسكر .. ولا حكم الدسكر !!

ـ تيك .. تك ..

ـ مفيش حقيقة مطلقة فى الفكر الانسانى كله .. اللى تشوفه صحيح ممكن أشوفه غلط . كل المعايير نسبية ورمزيه . وبناء عليه فالكل قبض ريح و ...

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ بكره تندم يا جميل .

ـ أيوه يا أخى الملحد .. الجزمه البنى حرام .. والمشى على الأسفلت حرام ودفن الراجل مع المرأة حرام .. ايه ؟ .. تقدر تعترض ؟ !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ أربعة جدعان يكتفونى !!

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ حنا كل لحمه امتى يا بابا ؟

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ بقولك ايه يا حاج .. هو عام الرخاء معداش عليك وانت قاعد كده ؟ !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ تقف شهرين قدام الجمعية لما يدوك لغلوغ واحد .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ وطى صوتك .. اللى قاعد جنبك ده مخبر .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ التاريخ مبينتظرش حد .. مين ممكن يغير ظروفنا .. غيرنا ؟

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ أمريكا طبعا ..

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ مين اللى قال الانسان أصله قرد ؟ .. غلط يا سيد .. غلط . الانسان أصله ثور .

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ آ .. واللهى .. كل عشرين ثانية بينزل أمى جديد .. معاك سيجارة !

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ عم عبده .. عم عبده . والنبى ادينى واحد شاطر ومشطور وما بينهما طازج .

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ مين سعد زغلول ده ؟

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ متعرفشى أى سفارة بتدى تأشيرات لأى حته ؟

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ــ اللى معاه جنيه .. بيساوى جنيه يا ضنايا .

ــ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ ياخى الجرايد مبقتشى تتقرى .. تحس انهم بيغيروا تاريخ اليوم .. وبس !!

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ « أولدسبايس » .. ينعشك كنسيم البحر .. تعال الى حيث المتعه . تعالل ل ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ قم للمعلم واعطه السيجارا .. كاد المعلم ان يكون حمــارا .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ انت بتكلمنى وكأنك مكنــه خربانه .. تقدر يقولى يعنى ايه أصالة ومعاصرة ؟

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ ساهم يا أخى الملحد !!

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ راح على البنك اللى بيساعد ويدى .. قال له هات . قال له ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ يا سلام .. فين أيام الششم !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ آه .. احنـا اللى دهنـا الهوا دوكـو .. عنـدك اعتراض ؟ !

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

آ .. وربنا .. على أيامنا كان العشرين بيضه بصاغ .. وكنا بنبخر العماره عشان تسكن .. و ..

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ اللى أنا نفسى أفهمه .. أنا كنت بحارب ضد مين فى العـلمين ؟

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ هو والجون .. هو والجون ...

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ فى أورشليم القدس .

ـ تيك .. تك . تيك .. تك .

ـ علشان تحرمى تاكلى جلاس و ..

ـ تيك •• تك • تيك •• تك •

ـ أقف فى الطابور يا محترم •• اتعلموا حاجه بقى •

ـ تيك •• تك • تيك •• تك •

ـ أنا البحر فى أحشائه الدر كامن •• فهل سألوا الغواص
عن صدفاتى ؟

ـ تيك •• تك • تيك •• تك •

ـ أنا طناش •• اذن فأنا موجود •

ـ تيك •• تك • تيك •• تك •

ظهــرك يا طــور !

ـ تيك •• تك • تيك •• تك •

ـ حاسب يا راجل •• استر يارب •

ـ تيك •• تك •• تاك •• تك •

ـ بو •• و •• و م •• طر ا •• ا •• ا •• خ •

ـ تك •••••••• !!

الاسكندرية ١٩٧٩ م

- رحلة الهبوط
- البــدين
- زيــارة

رحلة الهبوط

حين تجاوزنا مواسير المجارى ، ودخلنا من النافذة المكسورة ، كانت الغرفة معتمة ، وتفوح بروائح بشرية باردة ! حينئذ سألنى « فتحى » ان كنت قد أحضرت الكشاف فنفيت ، الأجنة الجديدة : فنفيت !

بصق بغضب ، وسمعته يغمغم ويزمجر ، ويلقى بجرابه على الأرض فينخلع قلبى !

وحين سألنى عما اذا كنت قد تأكدت من خلو الشقة ، أمنت على ذلك ، فأشعل ولاعته وغشانى الضوء . وحين

تفرست المكان ، وجدتنى فى حجرة خالية الا من كليم قديم ، ووسادة اسفنجية متسخة .

رمقنى فتحى وهو بين الضحك والبكاء ، قال « ختامها مسك » . وقال : « تب علينا يارب » ثم كسر المزلاج الداخلى وأضاء الشقة فوقفنا مبهوتين .

مططت شفتى فهز كتفيه .. قال : خدعنا . فقلت : ربما .

كانت الشقة خالية الا من ثلاجة فارغة ، وصورة كبيرة لعروسين لا تبدو عليهما السعادة .

أبدى فتحى قلقه وتشككه ، فذكرته بأن « لكل حصان كبوة » لكنه لم يسترح لاجابتى ، وقال انه لا يجب « شغل التلامذه » . ثم فتح الثلاجة ، واختبر حملها ففشل قال : خدعنا ، فقلت : ربما .

ذهب الى المطبخ وأتى بكسرة خبز مقددة ، وقطعة جبن فى طبق مشروخ ثم ضحك بمرارة ففعلت مثلما فعل .

طلب شايا ، فوجدت « قرفة » ، وبحثت عن سكر فوجدت ملحا ..

شرب فتحى وسألنى : هل خدعنا ؟ فشربت وقلت : أعتقد !!

تأملني وكأنه يراني لأول مرة .. فتأملته بدوري ..

أكل فأكلت .. وبعد ان فعلنا ذلك ، سألني : كيف يعيش هؤلاء الناس اذن ؟ فلم أجد ما يمكن قوله .

مط شفتيه ، ثم قام وتفقد البلاط ، فقمت وتفقدت الوسادة ، فتح المطبخ ففتحت المرحاض !

سألني ان كنا سنخرج مثلما دخلنا ؟ قلت : يكفينا أكل الجبن والعيش العفن !

تفرسني بامعان مقلق ، ونصحني بالبحث عن وظيفة أخرى ، فهززت رأسي .

رفع جرابه وأولاني ظهره ، ففتحت الثلاجة ووضعت جنيهين . لمحني فأتى ورمى ضعفهما ونظر الي فنظرت اليه ..

أفرغت كل ما معي ففعل مثلما فعلت !!

حمل جرابه فحملت جرابي ، تأملني لآخر مرة وقال : « لا تسرح معي بعد اليوم » فقلت كذلك وقبل ان يطفىء النور لنهبط ، عاد متذكرا ، ولف الكليم تحت ابطه ، فجريت بدوري وأخذت الوسادة في حضني ، وصورة العروسين على ظهري ..

تفرسني وضحك ، ففعلت مثلما فعل !

وحين أولانى ظهره ، أوليته ظهرى ..

وسمعته يسألنى عما سأفعل فى هذه الدنيا ؟

فلم أجد ما يقال .

قال انه ربما عاش حتى يموت ، وربما ألقى بنفسه فى نهر أو تحت قطار !

فقلت ان الانسان لا يفعل شيئا !!

وحين غاب فى الظلام البعيد .. أخذت طريقا مخالفا ، ينحدر الى طريق ... ويفضى الى طريق ..

وعلى أضواء السيارات العابرة ، رأيت صورة العروسين ترمقنى بامعان وارتعاش ..

ثم تجهش بالبكاء !!

القاهرة ١٩٨٩ م

البـــدين

ذهب رجل فى حجم الفيل الى معرض للموبيليا بحثـا عن عمل ..

فلما رآه صاحب المحل ، وجد انه لا يصلح لاى شيء !! سوى ان ينام على الأسرة كى يقنع المشترين بمتانة البضاعة ..

وقدرتها على الاحتمال وحسن الصناعة .

فأخبره بأنه لن يفعل أى شيء .. يمكن ان يتعبه ــ سوى أن ينام على السرير ، ويتغطى بملاءة من الحرير وينعم ــ طوال عمله هنا ــ بالراحة والشخير ..

وما كاد يتفاوض معه على الأجور والمرتبات والحضور والتأمينات حتى هب البدين ضجرا ، وصاح فى صاحب المحل :

ـ أنا لا يهمنى الأجر ولا مكانه •• ولكنى أريد أنأعرف أولا ، وقبل أى شىء •• يوم راحتى !!

الجـيزة ١٩٩١ م

زيـــارة

بعد أن خاب سعى « فتوح » فى شوارع القاهرة ‥ هام الى شوارع الجيزة وظل يطوف فى أزقتها الباردة ، وحواريها المظلمة ‥ حتى كاد يجن !!

ففى كل مرة « ينمر » فيها على شقة أو بنك ، يجد فى طريقه بلوى مشبوكة بمثلها حتى الصعيدى الذى « لطشه » فى الترام ، لم يجد فى حافظتـه ســوى ورق لا معنى له ، وكراسة ديون مطوية وبطاقة عائلية مزورة !!

وحتى دورات المياه العمومية يغلقونها ليلا ، والمصـلون أصبحوا يحرصون على أحذيتهم حرصهم على أولادهم !

وبما ان البطن تعمل •• وتطلب

تهصر وتعصر ••

ولم يعد فى الوقت وقت ••

فقد بادر « فتوح » وقفز على أقرب سور صادفه ، وكان قصيرا بصورة لافتة • فتجــاوزه بسرعة ، واختفى بين الأشجار الكثيفة •

ثم تقدم فى ظلام المكان وبرودته ،

وراح يفتح كل الأبواب التى واجهته •

وكانت كثيرة بصورة لم يألفها من قبل ، ولكن ذلك كان أدعى للأمل والرجاء ••

فلم يمنعه مانع ، ولم يوقفه قفل !

ولكن ما أثار عجبه فعلا ، ذلك الكم من الغرف المتناثرة ، والتى تشبه غرف الحراس والبوابين •

ولأن الوقت من ذهب

فقد وثب على أول بناية حديدية بدت له مهمة •

فخلص الأجنة من أسر جريدة قديمــة ، وظل يفتح كل الأبواب الحديدية ، وكل الأنفاق المظلمة قبل أن يدركه صبح •

وحين وصل للباب الأخير .. وجد صعوبة بالغة فى فتحه ، وشم رائحة غريبة !

لكنه انهال على القفل العنيد ، وقد ضاق صدره ، وأوشك على البكاء !!

وما كاد القفل ينهار وينكسر ، حتى دخل بسرعة ، وأغلق الباب خلفه بحذر وانتباه .. وحينئذ فقط تأكد ان الرائحة لا تطاق بالفعل ..

حين زلق فى الرغام ..

وسمع زئير الأسد !!

الجيزة ١٩٩١ م

للمؤلف تحت الطبع :

● **اطـلالات :**

دراســات وقراءات فى قصص الجيل الســادس ـ السبعينيات والثمانينيات ـ فى مصر .

● **خيانات شرعية :**

روايــة .

الفهـرس

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٨٩٦/١٩٩٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3249 — 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب